

ويليام شكسبير

العبرة بالخوانية

ترجمة عباس حافض

مكتبة علي بن صالح الرقمية

ويليام شكسبير



العبرة بالخواتيم

مسرح

ترجمة عباس حافظ

1623



كتب اونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

موضوع القصة ومن أين اقتبسها شكسبير

بقلم عباس حافظ

استقى شكسبير موضوع هذه القصة من الأديب الإيطالي بوكاشيو، الذي ألّف قصة «ديكاميرون»، وأجراها على نسق كتاب «ألف ليلة وليلة»، وجعلها نواذر تُقَصُّ تَباعًا يومًا بعد آخر. وفي اليوم الثالث يحكي المؤلف القصة التاسعة، وتكاد في جملتها وجوهرها تماثل مسرحية شكسبير.

وقد اقتبسها الشاعر من ترجمة لبوكاشيو، أصدرها «وليم بينتر» في عام ١٥٦٦، مع قصص أخرى، جعل عنوانها «قصر اللذات».

وفيما يلي خلاصة القصة كما كتبها بوكاشيو:

كان «إيزناردو» كونت روسيليون، أحد أشراف فرنسا، رجلاً اصطلحت العلل عليه، فدعا إليه طبيباً يُدعى «جيرادودي ناربونا» ليلازمه ويشرف على تطبيقه. وكان له ولد لم ينجب سواه، فنشأ الغلام وترعرع بجانب ابنة الطبيب: وهي «جيليتا»، فأحبته الصبية ولكنها لم تكشفه، بل كتمت حبها في صدرها؛ إذ أدركت الفارق الاجتماعي الكبير بينها وبين الأمير الصغير.

وقضى الكونت نَحْبَه، فأصبح ابنه في رعاية ملك فرنسا، بحكم التقاليد؛ إذ كان أبناء الأشراف حين يموت آباؤهم، وهم بعد في سنّ الحداثة أو مطالع الصبا، يُوضَعون في حماية المَلِك ورعايته. فانتقل الفتى إلى باريس ليقوم في البلاط، ولم تستطع «جيليتا» أن تتبّعه، ولكنها علمت أن الملك يشكو من «خراج» ألیم في الصدر عجز الأطباء عن إبرائه منه، فانتوت الفتاة الاستعانة بوصفة دواء كان أبوها قد تركها من بعده، على علاج الملك من علته. فسافرت إلى باريس، وتمكنت من المثول بين يديه، وإقناعه بتجربة دوائها، فإذا برئ من المرض، كافأها، على جهدها. وقد اشترطت أن يأذن لها في اختيار زوج لها من بين الأمراء الشباب في حاشيته، فرضي الملك ووعداها إذا برئ من علته أن يكون لها ما طلبت.

وقد شفي الملك حقًا، وبرَّ الملك بوعده، فدعا إليه الشباب، واختارت «جيليتا» فتاها من بينهم، فغضب «بلترامو» — الكونت الصغير — واستعفى، ولكن الملك أصرَّ على أن تكون له زوجًا، فلم يجسر على مخالفة أمره.

ولم يكد يتم الاحتفال بالقران، حتى لاذ الشاب بالفرار إلى «تسكانيا» ليحارب في صف دوق فلورنسا، وكان في قتال حيال أهل مدينة إيطالية أخرى تدعى «سينا»، بينما رجعت «جيليتا» إلى قصر «روسيليون» حيث استُقبلت استقبال «الكونتة» الصغيرة، وعكفت على إدارة ضياع زوجها بحكمة بالغة حتى ظفرت بقلوب الزُّراع، واكتسبت إعجابهم وبعثت برسولين إلى «بلترامو» ترجو إليه أن يعود، فرد عليها مع الرسولين قائلاً: «لتفعل ما تشاء لأنني لن أعاشرها حتى تلبس هذا الخاتم في إصبعها، وتحمل بين ذراعيها ولدًا تلده مني...».

واشتد بها الأسى حين عرفت هذين الشرطين، واعتزمت أن تقضي بقية العمر بتولًا ناسكة. ثم تزيَّت بزي الحجاج، وشخصت إلى فلورنسا، حيث عرفت أن «بلترامو» يحب فتاة فقيرة ولكنها طاهرة الجيـث عفة، وتقيم مع أمها في المدينة. فذهبت إليهما وقصت عليهما القصص، ووعدت الفتاة مهرًا سخياً إذا هي وأمها قبلتا ما هي عارضةٌ عليهما قائلة: «أريد أن توفدا رسولًا موثقًا به إلى الكونت لينبئه أن الفتاة تحت أمره، وأنها لكي تستوثق من أنه يحبها دون سواها ترجو أن يرسل إليها خاتمًا لتلبسه في إصبعها، وهو خاتم سمعت بأنه شديد الاعتزاز به، فإذا أرسله إليها، أخذته أنا منها، وتتولى هي إرسال كتاب إليه تقول فيه إنها لا تتردد في النزول على مشيئته، وتعين له في فحمة الليل موعدًا للخلوة بها، فإذا جاء حللت أنا محلها. ومن يدري لعل الله مقبض لي ولدًا منه، فيتم ما اشترطه، وهو الخاتم في إصبعي، والولد بين ذراعي، ولعلي بهذا مُستردَّة زوجي بفضلكما...».

ولكن والدة الفتاة ترددت في بداية الأمر متكرهة، ثم ما لبثت أن أقبلت الفكرة، وحقق الله للزوجة المقصية سؤالها، فولدت منه ولدين، وتكررت الخلوات على الأيام وهو في كل مرة لا يدري أنها زوجه، بل يحسبها المرأة التي أحبها.

وعلم الكونت «بلترامو» أن زوجه قد غادرت قصر أبويه فعاد إليه، في حين لبثت «جيليتا» مقيمة في فلورنسا حتى وضعت «توأميها»، فعادت وهي لا تزال في زي الحجاج إلى القصر في وقت كان الكونت يقيم فيه وليمة كبيرة، فدخلت إلى البهو، وتقدمت نحوه، فجاءت عند قدميه وشرحت له كيف نفذت شرطيه وانثنت قائلة: والآن فلترتضيـني لك زوجًا إن كنتَ لوَعْدِكَ منجزًا ...

وروت له ما جرى، فبُهِت مما سمع، وتأثر بما علم، وأقبل عليها معانقًا راضيًا.

وقد ختم بوكاشيو القصة بهذه الكلمات:

«ومن ذلك اليوم أحبها وكرّمها تكريم زوج لزوجة عزيزة وفيّة...».

براعة شكسبير في صياغة القصة والزيادة عليها

ويقول النقات: إن القصة، كما بدت في ترجمة «وليم بينتر»، لم تكن بارعة في التأدية، ولا رائعة من حيث الأسلوب، ولكن شكسبير التزم حوادثها من حيث هي، ومضى يتوسع في مشاهدتها، ويدخل عليها أشخاصاً من براعة ابتكاره، وحسن تأديته، وجمال شعره، وروعة حكمته: كشخصية «الكونتة» أم برترام، والأمير الشيخ «لافيه» الثرثار، و«لاهاش» المضحك المهذار، و«بارولس» الجبان الكذاب. فكانت هذه الزيادات التي «طعم» بها شكسبير القصة، تطعيم البستاني الثمار والعيان والأزهار، أحلى شخصياتها، وأعذب مشاهدتها، وأبدع أجزاءها المليئة بالحكمة والكلمات الجوامع التي ذهبت مذهب الأمثال.

وقد وضع الشاعر هذه القصة، فيما يقول الرواة، خلال الفترة بين عامي ١٩٥٨ و١٦٠٨، وهي الفترة التي دخلت فيها عبقريته دور النضوج، وأخرج خلالها طائفة من خيرة رواياته، وروائع آياته، وأكبر الظن أنه كان يريد بها أن تكون أختاً لقصة «خاب معي العشاق»، حتى لقد سماها في بداية الأمر: «أفلح معي العشاق»، وإن كانت هذه أرفع من تلك إنتاجاً، وأسمى مرتبةً، ولا يدري أحدٌ ما الذي حمله فيما بعد على تغيير عنوانها، وإن كان المرجح أنه وجد في عنوانها الحالي مثلاً سائراً في أيامه، فاعتقد أنه أرى للأنظار وأجلب للشهرة، فاختاره.

وقد رأيناه يجعل المحور الجدي في هذه الرواية «الفكهة»، يدور حول «هيلين» التي كرهها زوجها من ساعة قرانه بها، ترفّعاً عنها، وتسامياً بمكانه الرفيع عن مكانتها، فاحتملت مرارة الخيبة. وما زالت بلطف حيلتها، وفضل ذكائها وفطنتها، حتى استعادت في النهاية، فكانت العبرة بالخواتيم كما أثرنا أن ندعو القصة بهذا العنوان.

وقد أراد شكسبير في تصويره لشخصية هيلين على هذا النحو أن يدلل على أن حب المرأة وصبرها ينتصران في النهاية على سوء استغلال الرجل لقوته وسلطانه. وإن شهدنا قصصاً أخرى لا عداد لها، تذهب غير هذا المذهب، فنصوّر المرأة في صورة الماكرة، الخداعة، الخلية من الثبات والصبر والوفاء.

وكان خيراً لشكسبير أن ينسب ذلك الحوار الطويل الذي دار بين «بارولس» في الفصل الأول وبين هيلين عن «العذرة» واستمساك العذاري بعفافهن، وترددهن في أمر الزواج، إلى شخصية أخرى غير ذلك «الماجن» الكذوب الدعي. ولكنه مع هذا ضمنه كلاماً بديعاً، ومجوناً بارعاً، وفلسفة فكهة، تُرضي السامعين والقارئ؛ وإن رأى بعض النقاد أنه كان أولى بحذف المشهد من الرواية بجملته.

أما شخصية الأم — وهي الكونتة العجوز — فقد أجاد الشاعر في رسمها أبلغ الإجادة، وقد رأيناه في أكثر من قصة يضفي على الأمهات وأمثالهن لوناً من الوقار يأخذ بالألباب، ولا يجعل الفتنة والإعجاب وقفاً على الغواني والشواب الحسان. وإن نصائح هذه الأم الرعوم لابنها قبل انتقاله إلى البلاط، لهي — على إيجازها — أدنى من حيث الحكمة والروعة إلى حديث الحكيم بولونيوس مع «لايرت» في قصة «هملت».

ويبدو الملك في روايتنا هذه مع مرضه فيلسوفاً، صادق النظرة؛ فإن الحوار الذي دار بينه وبين الشاب «برترام» بسبيل اعتزازه برفعة المنبت، وعراقة المحتد، قطعة ملأى بالقوة وأصالة الرأي.

أما شخصية «بارولس»، فهي صورة فذة منقطعة النظير؛ فقد صوره الشاعر، رقيقاً، كذاباً، رعيدياً، مُدعيًا ما ليس فيه، حتى ليستثير منا الرثاء له حين يفتضح أمره، وتتكشف خليقته، على فرط هذه المعاييب التي تجتمع فيه، وتنتزع منا الضحك والسخرية منه، وحين يصفه الأمير الشيخ الماجن «لافيه» بقوله: «لا يمكن أن تكون في هذه البندقة حبة، فإن كل روحه هي ثيابه».

ولسنا ننسى شخصية «المهذار» في هذه القصة، فهو ناحية بمفردها من نواحيها الفكهة، ولا سيما حين يقول: «إن لديه جواباً يصلح لكل الأسئلة»، وحين ينطلق في نكاته البارة، وتورياته المتقنة، ومجونه البديع.

وعند تقدير مفاتن هذه المسرحية، لا يصح أن نغفل الإشارة إلى ذلك المشهد الفاتن الذي يخلو فيه الشاب النبيل «برترام» بالفتاة «ديانا»؛ لإغرائها بالاستجابة إلى غزله، والاستماع إلى نداء شهوته. ولا نحسب ثمة مقالاً في طهارة العذارى، والحرص على العرض والحفاظ، أروع ولا أبلغ من مقالها وهي تحاجه وتأبى مطاوعة رغبته. ولا نعتقد أن هناك نصيحة إلى الفتيات الحسان، والعذارى المليحات، أسدى ولا أحجى مما جرى على شفثيها، حتى ليتجاوز في جلاله كل ما كتبه الفلاسفة أو قاله الحكماء.

لقد كان شكسبير في جملة رواياته «معلم أخلاق»، فمن قرأه بغير نظر إلى هذه المزية فيه، لم ينتفع به، وفاته «المفتاح» الذي يفتح له الطريق إلى مغاليق هذه الحكمة المستترة في هزله ودعايته.

وقد لا تخلو هذه القصص الروائع من عبارات «مكشوفة» أو أفكار جافية، ولكن لا يستطيع أحد أن يعثر خلالها على «مبادئ» خاطئة، أو نظرات تصطدم بكرائم الأخلاق...».

شخصيات المسرحية

ملك فرنسا.

دوق فلورنسا.

برترام كونت رسيون.

لافيه: لورد متقدم في السن.

بارولس تابع لبرترام.

رئيس الخدم في قصر الكونتيسة رسيون.

مهرج.

السيد ج. ديمان.

السيد ب. ديمان.

وصيف.

الكونتيسة رسيون: أم برترام.

هيلين: فتاة في رعاية الكونتيسة.

أرملة عجوز: فلورنسا.

ديانا: ابنتها.

فيولنتا وماريانا: من جيران الأرملة وصديقاتها.

الفصل الأول

المشهد الأول

روسيون — حجرة في قصر الكونتيسة

(يدخل برترام والكونتيسة روسيون، وهيلين، ولافيه. وهم جميعًا في ثياب الحدود.)

الكونتيسة: إنني بانتزاع ولدي مني — أدفن زوجًا ثانيًا.

برترام: وأنا يا سيدتي بذهابي أبكي مرة أخرى، ولكن يجب أن أمتثل لأمر جلالته؛ لأنني الآن تحت وصايته، بل أكثر من ذلك في خضوع لمشيئته.¹

لافيه: ستجدين في الملك يا سيدتي زوجًا، وأنت يا سيدي واجدٌ فيه أبًا. فمن كان مثله خيرًا مكرمًا للناس أبدًا، لا بد مُظهر فضله نحوك، مُكرم بالضرورة لك. وكونك العلا لهذا يدعو إلى تكريمك حتى مَنْ كان من الفضل خليًا، فكيف وهو كثير الأفضال موفور المحامد والخلال.

الكونتيسة: وهل من أمل في بُرء جلالته ...

لافيه: لقد يئس أطباؤه يا سيدتي، بعد أن بدد بالأمل الزمان، تحت علاجهم، ولم يجد منه نفعًا، غير فقدان الأمل على الأيام.²

الكونتيسة: لقد «كان» لهذه السيدة أب — أواه، من كلمة «كان» هذه. ما أقسى ذلك الحادث، وكانت براعة طبه تكاد في عظمتها تبلغ مبلغ صدقه ونزاهته، ولو امتد الأجل بها إلى أيامنا، لجعلت الطبيعة البشرية متأبية على الفناء، ولذهب الموت يرتع ويلعب، لتبطله من العمل وفراغه، ليته من أجل الملك كان حيًا! ولو كان لكان في حياته في أغلب ظني، موت مرض الملك وهلك علته.

لافيه: وماذا كان اسم الرجل الذي تتحدثين عنه يا سيدتي ...

الكونتيسة: لقد كان علمًا يا سيدي في مهنته، وله الحق كل الحق في أن ينال ما نال من الشهرة، لقد كان يدعى «جيرار دي ناريون».

لافيه: لقد كان في الحق رجلًا ممتازًا، وقد ذكره الملك من عهد قريب بإعجاب به، وأسى عليه، ولو استطاع العلم أن يغالب الموت، لكانت براعته كافية لأن يبقى حيًا أبد الدهر.

برترام: ومِمَّ يشكو الملك وتذوى صحته يا سيدي الكريم ...

لافيه: وددت أنك لم تسمع به الآن أو تعرفه، هذه السيدة ابنة جيرار دي ناريون.

الكونتيسة: وحيدته يا سيدي، وقد عهد بها إلى عنايتي، وإن تربيتها لتُبشر بالخير الذي أرجوه لها، إن الميول والمنازع التي ورثتها لتجعل مواهبها الجميلة أكثر جمالًا وبهاءً، وتُبدي السجايا الحسان أشد حسنًا ورواءً، وحيث يحمل العقل الخلي من النقاء، فضائل وحسنٍ خلال، تكن المدائح أسفًا لها ورثاءً، وهي في هذه الحقائق تكون فضائل، وسجايا حسنة، وهي أيضًا غوارد وخونة، أما عندها، فإن بساطة فضائلها، تزيدها فضلًا، لقد ورثت الوفاء، واكتسبت بنفسها الطيبة.

لافيه: إن مديحك يا سيدتي يسيل دموعها.

الكونتيسة: إن الدموع لَهي خير ملح «تتبل» به العذراء المديح الموجه إليها، إن ذكرى أبيها لا تكاد تقترب من قلبها، حتى تستبد بها الأحزان فتتزع كل سمات الحياة من خديها. حسبك يا هيلين وكفى دمعًا، لئلا يظن أنك تتصنعين الحزن تصنعًا، لا أنك.

هيلين: إني، حقًا، أظهر الحزن ولكنني أكنه أيضًا.

لافيه: إن الحزن المعتدل حق للموتى، ولكن الأسى المفرط عدو للأحياء.

الكونتيسة: وإذا كان الأحياء للحزن أعداءً، فإن الإفراط فيه لا يلبث أن يودي بالحياة.

برترام: سيدتي، أتمنى دعواتك الطاهرة.

لافيه: كيف نفهم هذا.^٢

الكونتيسة: بُوركت يا برترام، ولتخلف أباك خلفًا وفضلًا، كما خلفته صورةً وشكلًا، إن الدم الذي يجري في أعراقتك، والفضيلة التي تزين أخلاقك، تتنازعان السلطان عليك، وطيبتك تتفق مع ما ورثته بمولذك، أحبب الجميع، ولا تتق إلا بالقليل، ولا تظلم أحدًا ... ولتكن لك مثل قدرة عدوك، ولكن اجعل قدرتك

عليه بأسًا وسلطانًا، ولا تستخدمها في إيذائه، وصُنْ صديقك واحرصْ عليه، بقفل حياتك ومفتاحها، ولأنَّ تُعاب على الصمت، خير لك من أن تُعاب على الكلام، وليكن لك ما تشاء السماء من زيادة في الفضل، وما في دعواتي من قطوف الأمل، وداعًا يا سيدي، إنه سيكون في بلاط الملك غير مجرب فكُنْ له ناصحًا.

لافيه: لن يعوزه خير ما يسديه الحب من نصح.

الكونتسة: ليباركُ الله ... وداعًا يا برترام.

(تخرج الكونتسة.)

برترام (لهيلين): لتكن أطيب ما في خاطرك من أمانتي، سعاة في خدمتك أرعى أُمي مولاتك، وزيديها منك ولأء.

لافيه: وداعًا أيتها الغادة الحسنة، وصوني لأبيك الفضل وحسن التناء.

(يخرجان.)

هيلين (وحدها): لو كان هذا كل ما هنالك لما فكرت في أبي، وإن هذه العبرات الغزار لَتزيد ذكراه جلالًا، أكثر مما ذرفت من قبل من عبرات، ترى كيف كان سمته؟ وكيف كانت صورته، لست أدري فقد نسيتُه، ولم يعد في خيالي شيء من ملامحه، بل كل ما بقي فيه هو صورة برترام ... الويل ويلى، لا حياة لي، وبرترام بعيد عني، إن حبي إياه كحبي نجمًا متلألئًا، إن عليَّ أن أقنع بمشهد سنائه وخاطف ضيائه، دون المقام في أفقه والعيش في نوره الساطع، إن ما في حبي من طموح لهُو سبب ما ألاقيه في هذا الحب من بلاء، فالغزاة التي تطمع أن تقترن بالليث، يقتلها حتمًا هذا الحب، وكان جميلًا، وإن بدا أليماً، أن أشهده في كل ساعة، وأن أجلس فأنقش حاجبيه المقوسين وعينه الحديدية، كعين الصقر، وغدائره، على صفحة الفكر، ولوح القلب، ذلك القلب القدير على تصوير كل معالم محياه، ورسم كل فتنة من عذوبة حسنه، وها هو ذا الآن قد ذهب، وعن العين احتجب، فليقدس خيالي الوثني العابد، وخاطري الراكع الساجد، صُورَه وآثاره، أشد التقديس ... من هذا القادم؟

(يدخل بارولس.)

(لنفسها) أحد الذين سيرافقونه، إنني أحبه لأجل خاطره، وإن كنت أعرفه كذابًا مشهورًا بكذبه، وأحسبه مهذارًا إلى حد كبير، وجبانًا من كل نواحيه، وإن كانت هذه المساوئ هي جزء من كيانه، حتى لتبدو طبيعية فيه، وعلى حين يبدو التَّزمتُ في الفضيلة رياءً ونفاقًا، وكثيرًا ما نشهد العاقل الرقيق الحال في خدمة الأحق الظاهر الحماقة.

بارولس: سلام لك أيتها الملكة الحسنة.

هيلين: سلام عليك أيها الملك.^٤

بارولس: لا ...

هيلين: ولا مثلها.

بارولس: هل تعتزمين أن تبقي عذراء بلا زواج.

هيلين: أجل — إن فيك شيئاً من صبغة الجندي ولونه، فدعني أسألك إن الرجل عدو للعذرة، فكيف نحصلها من شره.

بارولس: بإبعاده.

هيلين: ولكنه أبداً مهاجم. وعذرتنا على شجاعتها، ضعيفة في الدفاع عن ذاتها، فهلا كشفت لنا عن شيء من وسائل المقاومة القوية.

بارولس: ليس ثمة وسائل، إن الرجل منا ليرابط قبالتكن، فيقوض كيانك ويُسِفُكُنْ نسفاً.

هيلين: حمى الله عذرتنا المسكينة من المُقَوِّضين والناسفين، أليس ثمة سياسة حربية مرسومة، تُمكن العذارى من نفس الرجال.

بارولس: لا تكاد العذرة تهوي حين ينسف الرجل حطاماً، إن الاحتفاظ بالعذرة ليس من سياسة الطبيعة ولا صالحها، إن فقدانها رِبْحٌ معقول، وزيادة حكيمة، وما من عذراء تُولِّد، إلا بعد أن تضيع العذرة أولاً وتفقدوها، إنكن قد صُنِعتن من معدن يصنع بذاته العذارى، فإن فقدت العذرة مرة، فقد تسترد عشر مرات، والحرص عليها مضيعة لها، إنها لرفيق بارد، فلنتخلَّ عنها.

هيلين: سأحرص «قليلاً» عليها، وإن مت عذراء.

بارولس: لا يكاد يوجد ما يقال في الدفاع عنها، إنها ضد ناموس الطبيعة وشريعتها، إن امتداح العذرة هو اتهام منكن لأمهاتكن، وهو عُقوق لا ريب فيه، إن العذراء التي تأبى الزواج هي كالرجل الذي يشق نفسه، ذلك أن العذرة تقتل نفسها، وأولى بها أن تُدفن في الطرق العامة بعيدة عن كل مكان مقدس^٥ لأنها أُجِرت إجراماً شديداً في حق الطبيعة، إن العذرة دود في ذاتها، أشبه ما تكون بالجبن، وتأكل نفسها حتى القشرة، وهكذا تموت مألثة بطنها من غذاء لحمها وطعام جسمها، والعذرة إلى جانب ذلك كله شرسة، متعجرفة، متبطلّة، صُنِعت من الأثرة وهي أشد الذنوب في الشريعة تحريماً، فلا تمسكيها عليك،

لأنك حتمًا بها خاسرة، اخرجي منها تجديها بعد سنة واحدة قد ضاعفت نفسها ضعفين، وهي زيادة كريمة، ولن تكون يومئذ أسوأ حالًا مما هي ... تخلي عنها.

هيلين: وكيف تفعل العذراء يا سيدي لكي تفقدها كما تحب؟

بارولس: دعيني أفكر، في الحق أن من الشر أن ترضى بمن لا تحب، إن العذرة سلعة تفقد بريق جدتها بطول البقاء، وكلما طال أمد الاحتفاظ بها، قلَّ قدرها، وبخس ثمنها، هُلُمِّي تخلصي منها وهي لا تزال قابلة للبيع. أجيبني الطلب في وقته، ولي السؤال في حينه، إن العذرة كرجل الحاشية المسن، ترتدي قبعة من طراز انتهى زمانه، وقدم حينه، ولئن صُنعت من قماش جيد، فإنها مع ذلك غير مناسبة لزمانها، كمشبك الصدر وفرشاة الأسنان⁶ لم يعودا يُلبسان الآن، إنه لأفضل أن تكون ثمرة⁷ في كعكتك وفطرك، منها على خدك، وإن عذرتك إذا طال عليها الدهر لأشبهه بالكمثرى الفرنسية الذابلة، تبدو في الشكل القبيح، وفي المذاق ممجوجة، وهي في الحق كمثرى ذاوية عفنة، وكانت فيما مضى خيرًا مما هي، ولكنها في الحق كمثرى ذاوية، فماذا تصنعين بها؟

هيلين: ولكن عذرتي لم تبلغ هذا الحد بعد، إنك لذهاب إلى بلاط⁸ الملك حيث مولاك وأجد ألف حب، أمًا، وخليفة، وصديقًا، وعنقاء، وقبطانًا، وعدوًا، ومرشدًا، وربة، وملكًا، ومشيرًا، وخائنة، وغالية عزيزة، وطموحًا ذليلاً، وضعة متكبرة، ووفقًا متافرًا، وتنافرًا موافقًا، وإيمانًا، ومرارة حلوة، وعالمًا من حسان غريرات، ذوات أسماء مختارة، وألقاب مصطفاة ينعم بها عليهم كيوبيد الأعمى الذي يراهن ويتبناهن،⁹ والآن فلست أدري ماذا سيفعل، فليحسن الله وفادته، إن البلاط معهد للتعلُّم، وهو ...

بارولس: وهو ماذا بالله ...؟

هيلين: من أتمنى له الخير للأسف ...

بارولس: للأسف ممّ ...

هيلين: إن أتمنى الخير لا شيء فيه يمكن أن يحس، وإننا معاشر المنحوسين من مولدنا، تحتجرنا كواكب نحوسنا في خوالج نفوسنا وأمانينا¹⁰ وقد نتبع أصدقاءنا، من تأثير كواكبنا، ونبدي ما نحن وحدنا نفكر فيه ونراه، فلا نجد شكرًا عليه ولا عرفانًا.

(يدخل غلام.)

الغلام: إن مولاي يدعوك يا سيد بارولس.

(ينصرف.)

بارولس: وداعًا يا هيلين الصغيرة، سأفكر فيك! إذا استطعت في البلاط أن أتذكرك.

هيلين: يا سيد بارولس، لقد وُلدت تحت كوكب سعد.

بارولس: أنا كوكبي المريخ.^{١١}

هيلين: رأيي الخاص أنه كذلك.

بارولس: ولم يكن المريخ كوكبي؟

هيلين: لأن الحروب شغلتك إلى حد لا مفر معه من القول إنك ولدت تحت كوكب المريخ.

بارولس: وهو في أوجه.

هيلين: بل أظن في تراجع.^{١٢}

بارولس: ولماذا تظنين هذا؟

هيلين: لأنك تتراجع كثيرًا حين تحارب.

بارولس: هذا مقصود لغرض.

هيلين: وكذلك القرار حين يبشر الخوف بطلب السلامة، ولكن شجاعتك وجبانتك اتفقتا على فضيلة خفة القدم، وسرعة الخطى، وإني ليروقني جدًا هذا المظهر.^{١٣}

بارولس: إن لدي من المشاغل ما يجعلني عاجزًا عن الرد عليك بما يفحمك، سأخلق بأخلاق حاشية الملوك، وسيساعد علمي على تغيير طبعك، فتصبحين قديرة على أن تأخذي بنصيحة للبلاطي العتيد ومشورته وتدركي ماذا تفرضه المشورة عليك، وإلا مت في جحودك ونكرانك، وذهب بك جهلك، وداعًا، وإن وجدت فراغًا من العمل، فاعكفي على صلاتك، وإن لم تجدي فراغًا فاذكري صحابك، واطفري لنفسك بزواج طيب وعاملية بمثل ما يعاملك، والآن وداعًا.

(يخرج.)

هيلين: إن دوائنا كثيرًا ما يأتي من أنفسنا، وإن عزواناه إلى السماء أحيانًا، إن السماء التي يقال إنها تتصرف في أقدارنا قد أتاحت لنا المجال واسعًا حرًا، فلا تردنا عما نبغي من خطط متراخية، إلى حين تجدنا فاترين، أيُّ قوة هذه التي تجعلني أحب من هو شأنه أعلى من شأني، وأنظر ولا أمتع بمن يطالع ناظري، إن الطبيعة، على بعد المسافة بين الحظوظ والأخطار، تجمع بين الأشباه والنظائر، حتى

ليتراءوا أندادًا، إن الفعال الجريئة لتبدو مستحيلة لمن يبالغون في الخوف من جهدهم، ويغالون بأخيلتهم في حساب متاعب سعيهم، فلا يحاولون أمرًا لا يجدون أمثلة له أمام أعينهم، ويظنون أن ما كان لا يمكن أن يكون، ومن تلك التي تجاهد في إبراز مواهبها إذا كانت قد فشلت في الظفر بحبيبها، وقد يخدعني مشروعي بشأن مرض الملك وعلته ولكن عزمي ثابتة وطيدة فلن تخذلني.
(تخرج.)

المشهد الثاني

دق طبول

(يدخل ملك فرنسا — مُمسِكًا برسائل في يده ومن خلفه رجال حاشيته.)

الملك: إن أهل فلورنسا، وشعب سيينا قد عادوا إلى الشقاق والقتال وتَماسكًا بالأذان وكانت الحرب بينهما سجالًا، ولا يزالان في حرب عناد وتحدٍّ.

الشريف الأول: بهذا وردت الأنباء يا مولاي.

الملك: أجل، إنها أنباء يرجح صدقها كل الرجحان، وقد أكدها لنا ملك النمسا ابن عمنا، ونبهنا إلى أن صاحب فلورنسا سيطلب إلينا عونًا عاجلًا، ولقد سبقنا أعز أصدقائنا برأيه في موقفنا ويبدو أنه يريد منا ألا نبعث مددًا.

الشريف الأول: إن حبه لجلالتك، وأصالة رأيه التي تثبت لديك يدعوان إلى الثقة به.

الملك: لقد أيد ردنا، فصننا بالعون قبل أن يطلب إلينا، ولكن من يريد من أشرافنا أن يشهد الحرب الناشبة في تسكانيا فهو حُر في أن يذهب، للاشتراك مع أي جانب من جانبيها.

الشريف الثاني: قد يكون ذلك بمثابة «معهد تدريب» لأشرافنا الذين يحنون إلى العمل وإتيان الفعال الجسام.

الملك: من القادم علينا ...

(يدخل برترام ولافيه وبارولس.)

الشريف الأول: هذا هو الكونت روسيون أيها المولى الكريم، الفتى برترام.

الملك: أيها الفتى، إن لك وجه أبيك، إن الطبيعة الصراح الصادقة بدقتها وأناتها، لا تعجلها وسرعتها، قد أحسنت صورتك وأرجو أن تكون قد ورثت خلق أبيك مع حسن صورته، مرحباً بك في باريس.

برترام: لك شكري وطاعتي يا صاحب الجلالة.

الملك: ليتني الآن سليم البدن موفور العافية كما كنت أنا وأبوك، حين جمعت المودة بيننا، نُجرب لأول مرة فنون الحرب، لقد خدم طويلاً في عهده وأبلى، وكان في مصافّ أشجع الشجعان وامتد به العمر، ولكن الشيخوخة تسالت إلينا، كالعجوز الشمطاء في قبح صورتها، وتكّر هيئتها فأعجزتنا وأوهنت من بأسنا، وإنه ليروقتني كثيراً الحديث عن أبيك الكريم، فقد كان له في شبابه هذه الفكاهة التي أراها اليوم في معاشر الشباب من أشرافنا، ولكنهم يتفكهون الآن حتى لترتد سخريتهم إليهم وهم لا يشعرون، قبل أن يستطيعوا إخفاء خفتهم في شرف البسالة، أما هو فكان مثال البلاطي الحسن فلم تكن السخرية ولا المؤجدة من شيمه، ولا الحدة من خيمه، ولو بدرت يوماً منه، فلا يكون ظهورها إلا أن أنداده هم الذين استثاروها فيه، وكان الشرف عنده كالساعة في دقتها، يعرف اللحظة التي يستوجب منه الغضب الكلام، فتطلق فيها لسانه، وأما الذين هم دونه فقد كان يعاملهم كأنداده، فكان ينحدر من عليائه إلى وهنتهم وينزل من أوجه إلى حضيضهم، فيجعلهم فخورين بتواضعه، مزهُوئين بانحناءته، وهو من مديحهم الدليل، يبدو المستحي، إن رجلاً من هذا الطراز خليق بأن يكون قدوة لشباب اليوم وفتيانهم، ولو اقتدوا به لأثبتوا أنهم للسلف خير خلف.

برترام: إن طيب ذكراه يا مولاي في خاطري، وحسن أثره في تقديرك لأغلى مما هو مكتوب على قبره، وإن خير دليل على صفاته الطيبة لهو حديثك الملكي لا النقش الذي على قبره.

الملك: ليتني كنت معه، لقد كان يقول على الدوام، وكأنني الساعة أسمع، لا ينثر كلماته السديدة نثرًا في الأسماع، بل يغرسها، لتنمو حيث غرسها وتؤتي ثمارها، لا أود أن تطول حياتي — كان يقولها بعد أن يستمتع ببعض اللهو ويكتئب لذهاب عهد عبثه، لا أود أن تطول بي الحياة، بعد أن تخبو جذوة العمر، وينفذ الزيت من السراج، حتى يسخر مني الشباب، ويأنف مني الفتيان، الذين يحتقرون كل شيء، إلا ما كان جديداً، والذين لا يقدرّون على شيء إلا ابتداء الثياب، وابتكار المطارف، ويذهب الوفاء عندهم قبل أن تتوارى الأزياء، هذا هو ما كان يتمناه، وهو ما أتمناه أيضاً بعد، وما دمت متعطلاً لا أخرج شمعاً ولا شهداً، فليتني من خليتي الراحل المُسرّع، لأفسح مكاناً لبعض العاملين والمنتجين.

الشريف الأول: إنك محبوب يا مولاي، والذين هم أقل من سواهم حباً لك، سيكونون أول من يفتقدونك، ويعزُّ عليهم ذهابك.

الملك: إنني أعرف أنني أملاً مكاناً، نبئني يا كونت، متى قضى الطبيب الذي كان يقيم عند أبيك، لقد كان ذائع الذكر.

برترام: منذ ستة أشهر أو قرابتها يا مولاي.

الملك: لو كان حياً لجربت طيبه، مدّ لي يدك ... لقد نهك الأطباء الآخرون قواي بما جربه في من طبه كل واحد منهم، إن الطبيعة والمرض يتنازعان الغلبة على مهل، مرحباً بك يا كونت إنك عزيز عليّ كولدي.

برترام: شكرًا لك يا صاحب الجلالة.

(ينصرفون.)

المشهد الثالث

(تدخل الكونتيسة ورئيس الخدم والمهرج.)

الكونتيسة: سأسمع الآن ماذا أنت قائل عن هذه السيدة.^{١٤}

رئيس الخدم: أرجو يا سيدتي أن يكون حرصي على إرضاء رغباتك تجدينه مذكورًا في جهودي الماضية، ولو عملنا إلى نشر محامدنا، والإعلان عن حسناتنا، لأسأنا إلى حياتنا، وأفسدنا علينا جمال تلك المحامد والحسنات.

الكونتيسة: ماذا يفعل هذا الخبيث هنا؟ ... اذهب يا هذا عنا، إنني لا أصدق كل تلك الشكاوى التي سمعتها عنك، وما ذلك إلا لأنني في الحكم وحلمي، لأنني أعرف أنك لا تقتقر إلى حماقة التي تدفعك إلى ارتكابها ولا تعوزك المقدرة على إتيانها.

المهرج: غير خاف عليك يا مولاتي أنني رجل فقير.

الكونتيسة: حسن يا هذا ثم ماذا ...

المهرج: كلا يا مولاتي، ليس حسنًا أنني رجل فقير، وإن شقي خلق كثير من الأغنياء، ولكن إذا رضيت يا مولاتي لي الزواج استطعنا أنا وإيزابل^{١٥} أن نعيش كما ينبغي.

الكونتيسة: هل لا بد لك أن تصبح «سائلًا»؟

المهرج: إنني «أسألك» الرضى في هذا الأمر.

الكونتيسة: في أي أمر.

المهرج: في أمر إيزابل وأمري، إن الخدم لا يتركون ميراثاً، وأحسبني لن أنال بركة الله، حتى أرزق البنين، لأنهم كما يقول الناس نِعَم وبركات.^{١٦}

الكونتيسة: قل لي ما سبب رغبتكم في الزواج.

المهرج: إن بدني يا مولاتي يتطلبه، ومن يدفعه الشيطان إلى أمر ما فهو حتماً مندفع.

الكونتيسة: أهذا هو كل ما لدى سيادتكم من سبب لرغبتك في الزواج؟

المهرج: يميناً يا مولاتي إن لدي أسباباً مقدسة أخرى.

الكونتيسة: هل للناس أن يعرفوها ...

المهرج: لقد عشت يا مولاتي إلى اليوم شريراً، كما أنت وكما هو شأن كل من هو من لحم ودم، وإنني أريد الزواج لكي أكفر عن ذنوبي.

الكونتيسة: ستكون على الزواج أسرع ندماً مما ستكون على السيئات.

المهرج: ليس لي صاحب يا مولاتي، وأرجو أن يكون لي صاحب من أجل زوجتي.

الكونتيسة: سيكون هؤلاء الصحاب أعداء لك يا أحق.

المهرج: أنت يا مولاتي قليلة الخبرة بالصحاب الكبار، إن أولئك الحمقى الذين سألهم سيأتون ليؤدوا عني ما قد تعبت منه، إن من يحرق لي أرضي، يوفر لي سائمتي، ويؤمّنني من أن أجمع حصادي، وإذا كنت أنا ديوته، فهو الكادح من أجلي، ومن يرح زوجتي يعزز لحمي ودمي، ومن يعزز لحمي ودمي يحبب لحمي ودمي، ومن يحبب لحمي ودمي فهو صديقي، أو بعبارة أخرى، إن من يقبل زوجتي هو صديقي، ولو قنع الناس بما هم فيه لما كان ثمة خوف من الزواج، إن الشاب المتمرّمت في دينه والبابوي الشيخ المحافظ على صومه، مهما اختلف قلباهما في المذهب، وتباينا في العقيدة، فإن في رأسيهما شيئاً واحداً، وهو قرناهما، يتلاقيان فيه ويتمثالان، ككل الوعول في القطيع.

الكونتيسة: أتأبى إلا أن تكون سليط اللسان سافلاً هجّاءً.

المهرج: نبي يا مولاتي، أقول الحق من أقرب طريق، وأردد كالشادي ما الناس واجدوه، الحق لا ريب فيه، وهو أن الزواج من صنع القدر، وأن الوقواق يشدو بحكم الطبيعة.

الكونتسة: اذهب يا هذا، سأواصل الحديث معك بعد لحظة وجيزة.

رئيس الخدم: هلا سمحت يا مولاتي بأن يدعو هيلين إلى الحضور لأنني أريد أن أتحدث عنها.

الكونتسة: قل يا هذا لوصيفتي، أعني هيلين، أنني أريد أن أتحدث إليها.

المهرج: أكان هذا الوجه الجميل السبب الذي حمل الإغريق على تخريب طروادة، حماقة منهم، ونزقاً وتباهياً به واعتزازاً، وهل كان هذا سر اغتباط الملك بريام وابتهاجه، قالت هذا ثم تنهدت وهي قائمة، وقالت هذه العبارة: لو أن واحدة صالحة بين تسع طالحات، وبين تسع طالحات واحدة صالحة، لكفى أن تكون واحدة صالحة بين عشر طالحات.^{١٧}

الكونتسة: ماذا تقول يا هذا، واحدة صالحة بين عشر، إنك تُشوه الأغنية.

المهرج: امرأة صالحة بين عشر نساء يا مولاتي، إن هذا تصحيح للأغنية ليت الله يحبو العالم بهذا طيلة العام! ولو أنني كنت قسيساً لما وجدت بأساً في المرأة العاشرة. يقول المرأة العاشرة ولو ظفرنا بمولد امرأة صالحة على مطلع كل كوكب سيّار، أو هزة زلزال،^{١٨} لتحسنت القسمة، وصلاح النصيب،^{١٩} واستطاع الرجل منا أن ينتزع قلبه، قبل أن يقتطف واحدة.

الكونتسة: اغرب عنا أيها الشقي، وافعل ما أمرتك به.

المهرج: إن خضوع الرجل لأمر امرأة، لا بأس منه ولا ضير ولئن لم يكن ثمة تَرَمَّت في الوقاء، فلن ينتج من هذا ضر ولا أذى بل إنها لترتدي الثوب البابوي المذل فوق الثوب الأسود الذي يرمي إلى تفهم الغالبية.

(تضرب الكونتسة الأرض بقدمها.)

إنني منصرف، ومهمتي أن أدعو هيلين إلى الحضور.

الكونتسة: الآن هات ما عندك.

رئيس الخدم: أعرف يا مولاتي حق المعرفة حبك لوصيفتك.

الكونتسة: يمين الله إنني حقاً أحبها، فقد عهد أبوها إليّ بها وهي إلى جانب مزاياها الأخرى وحسناتها، جديرة بهذا الحب الذي هي عندي واجدته، إن ما يُعطى إليها قليل إلى جانب ما تستحقه، وستُعطى أكثر

مما تطلب.

رئيس الخدم: لقد كنت في الأيام الأخيرة يا مولاتي أقرب إليها مما كانت تود، فرأيتها وحدها تتاجي نفسها، وتتحدث بلسانها، إلى سمعها، وإني لشهيد على أنها كانت تظن أن كلامها، وحديث نجواها، لم يَسْتَرْقَ سمعٌ، لقد كان أمرها أنها تحب ابنك، وكانت تقول إن القدر ليس «إلهًا» رحيمًا، لأنه أقام فارقًا بين مقامها ومقامه، وإن الحب ليس ربًّا ذا رحمة، لأنه لا يمد سلطانه إلا حين تتماثل السجايا، وتتشابه الصفات، وإن ديانا ليست ملكة العذارى، لأنها تتخلى عن فوارسها وأبطالها، وتدعهن بغير نصير، في الاقتحام الأول، أو في الفدية بعد ذلك، وكانت تقول هذا وهي في أشد مرارة الأسى والعناء، وأحزن ما سمعت في حياتي من عذراء، فرأيت من واجبي أن أبادر إلى إنهاء الأمر إليك، لأنه يهملك أن تكوني عليمة به، قبل أن يحدث ما لا تُحمد عقباه.

الكونتيسة: لقد أديتَ واجبك مخلصًا، فدع الأمر في أطواء نفسك ولا تَبُحْ لأحد به، وقد رأيت من قبل عليه شواهد، ولكنها بقيت مترنحة في كفة الميزان، بين الشك عندي واليقين، والآن أرجو أن تتصرف عني، واكتم الأمر في أعماق صدرك، وإني لشاكرة لك حرصك ووفائك وسأتحدث إليك بعد قليل.

(يخرج رئيس الخدم وتدخل هيلين.)

كذلك كان أمري حين كنت في شبابي، إن أجرينا على سنن الطبيعة، فهذا ما يصيينا، وما دام الدم يجري في عروقنا فلا بد أن يكون الحب في دمننا فهو مظهر الطبيعة وخاتمتها، حين تتطبع قوة الحب على صفحة شبابنا، ونحن حين نذكر أيامنا الخالية، نتبين أغلاطنا هذه وهفواتنا، أو أننا لم نفكر يومئذ في أنها أغلاط، وإني أراها الآن قريحة العين من فرط ما بها.

هيلين: ماذا تشاءين يا مولاتي؟

الكونتيسة: أنت تعرفين يا هيلين أنني أم لك.

هيلين: بل مولاتي المعظمة.

الكونتيسة: كلا. بل أم. ولم لا؟ ... يُخَيَّلُ إِلَيَّ حين قلت أم كَأَنَّكَ شَهِدْتَ حَيَّةً تسعى، فماذا يُخَيِّفُكَ من الأم؟ إني أقول لك إنني أمك وأضعك في مصاف من حملتهم في أحشائي، وَلَكَمْ رأينا التبنّي^{٢٠} منافسًا للبنوة، والاصطفاء يؤتينا ثمارًا طبيعية نبتت من بذور أجنبية، وأنت ما أتعبتيني يومًا كَأَمْ في أيام حملها، وأوجاع وَضَعِها، ولكني أبدي لك حُنُوءًا، وأحس لك رفقها وعطفها، لك الله يا فتاة. أيجد الدم في عروقتك حينما أقول إنني أمك، ما خَطْبُكَ حتى أرى هذا الرسول الندّي على محياك، وهذا الطيف الشمسي حول عينيك. أذلك كله لأنك ابنتي^{٢١} ...

هيلين: لأنني لستُها.

الكونتيسة: ولكني أقول إنني أمك.

هيلين: عفوًا يا مولاتي، لا يمكن أن يكون الكونت روسيون أخي، إنني من أصل وضيع، وهو من منبت باذخ، وليس لأهلي ذِكْرٌ، وأهله الأشراف الأماجد، هو مولاي العزيز وأنا خادمة أحيًا وأموت تابعة له وموالية، فلا ينبغي أن يكون لمثلي أخًا.

الكونتيسة: ولا أنا أمك؟ ٢٦ ...

هيلين: أنت أمي يا مولاتي، لبيتك كنت أمي حقًا، حتى يكون مولاي ابنك أخي، حقًا أنت أمي، وليتك كنت لنا نحن الاثنين أمًا، إن عنايتي بهذا الأمر لا تقل عن عنايتي بأن يكون مثواري الجنة، على ألا أكون له أختًا، وإذا كنت أنا ابنتك ألا يستلزم هذا أن يكون هو أخي؟

الكونتيسة: أجل يا هيلين، قد تصبحين بنتي، حماك الله يا بنية، أنت لا تعنين هذا ولا تقصدينه، ولكن اضطربت أعصابك ما بين الحب والخوف من اسم الابنة، والأم تجهد خاطرك، ماذا أرى، أيعاودك الشحوب مرة أخرى، لقد عرف خوفي كيف يكشف حبك، والآن قد أدركت سر وحدتك وانطوائك على نفسك، واهتديت إلى باعث مرير عبرتك، لقد برح الخفاء، أنت تحبين ابني، وليس في وسعك أن تتكري حبك إياه، أمام ما أعلنت عاطفتك، ونادت به مشاعرك، فلتتبئيني إذن بالحق، لنقولي إن الأمر كذلك، ألا ترين إلى خديك، كيف يعترف أحدهما للآخر ويقر، وإلى عينيك كيف تتنمَّان عليك، كما هو ديدنهما، وتتحدثان بلغتهما عن حبك، وإن كان الحياء الأليم والعناد الأثيم، يمسان لسانك، تكلمي حتى لا تُتهم الحقيقة أو يُستراب بها، انطقي! أهو كذلك؟ ... فإن كان كذلك، فقد أوجدت لي مشكلة خطيرة، وإن لم يكن كذلك، فأقسمي. ومهما اتهمتكم فليعاوني الله على خدمتك إذا نباتتي بالحق.

هيلين: أستمحك يا مولاتي الكريمة مغفرة.

الكونتيسة: هل تحبين ابني؟

هيلين: مغفرة يا مولاتي النبيلة.

الكونتيسة: هل تحبين ابني؟

هيلين: ألا تحبينه يا مولاتي؟

الكونتيسة: دعك من اللف والدوران، إنني ملزمة بفطرتي أن أحبه، وهذا رباط معروف لكل الناس، هلمي، هلمي، اكشفي عن حبك، فقد نمَّ عنك كل النَّم.

هيلين: إذن أعترف، وأنا جاثية أمام السموات العلى وأمامك، أنني أحب ابنك حباً يزيد على حبي لنفسي ويقرب من حبي لله، لقد كان قومي فقراء، ولكنهم إخوان صدق ووفاء، وكذلك حبي، فلا يسوءك هذا، لأنه لا أذاة منه لمن أحب، ولست متبعة حبي بمطلب جريء، وليس لي من ورائه مأرب متبجح، وما أنا طامعة فيه، حتى أكون جديرة به، ولئن كنت لا أعرف كيف تتحقق تلك الجدارة، ولكنني أعلم أن حبي بلا جدوى، وأنه مغالبة للأمل، وإن ظلت أسكب أمواه حبي في هذا الغربال الذي يتلقى كل شيء ولا يمسك قط بشيء، ولن أضن على هذا الضياع أبداً بمزيد. وما مثلي إلا كمثل الهندي — أعبد — على خطأ في الدين — الشمس التي تنظر إلى عابدها، ولا تدري عنه شيئاً، أي مولاتي العزيزة، حاشاك أن يكون حبي لمن تحبين سبباً في أن تقابلي هذا الحب بالبغض، فأرث إذن لمن حالها مثل حالي، لا حول لها إلا أن تقرر وتعطي، وهي واثقة من أنها الخاسرة، ولا تعمل في هذه الدنيا لأن تجد ما تسعى لنيله ولكنها كاللغز الخفي تجد الحياة الهنيئة حيث تلقى الموت.

الكونتيسة: ألم تكن في نفسك أخيراً نية الذهاب إلى باريس، قولي الحق.

هيلين: بلى يا مولاتي.

الكونتيسة: وما الغرض، نبئيني بالحق.

هيلين: سأقول الحق، وأقسم بالرحمن إنني قائلته، أنت تعلمين أن أبي ترك لي من بعده وصفات طبية نادرة محققة التأثير مما اهتدى إليه من قراءاته، وأثبتتها تجاربه، وجمعها لتكون حاوية الدواء لكل علة، ووصاني أشد التوصية بألا أهبطها إلا عند الضرورة القصوى ولذوي المقام الكبير، وهي أقوى مفعولاً في سبيل البرء مما يعزى إليها في الكتاب، ومن بين هذه المجموعة دواء مقرر مخصص لشفاء الأوجاع الميئوس منها التي تدوى منها صحة الملك، ويوشك من أثرها أن يكون من الهالكين.

الكونتيسة: أكان هذا هو الباعث لك على سفرك إلى باريس — تكلمي.

هيلين: إن مولاي ابنك هو الذي جعلني أفكر في هذا الأمر، وإلا فما كانت باريس ولا الدواء ولا الملك لتدور يوماً في خاطري وما كان أسعدني بخلو خاطري من هذا التفكير.

الكونتيسة: ولكن هل تظنين يا هيلين أن الملك سيتقبل الدواء المسعف الذي تزعمين أنك متقدمة به لمعونته، وهو وأطبائوه مجمعون على رأي واحد، فأما هو فيرى أنهم لن يستطيعوا إبراءه، وأما هم فيرون أنهم عن علاجه عاجزون، فكيف يصدقون عذراء فقيرة لم تصب علماً، وهم قد أفرغوا كل ما في الطب من علم، ثم تركوا الخطر يستفحل يائسين ...

هيلين: إن في هذا الدواء شيئاً يوحى بأن فيه شيئاً غير براعة أبي، وإن كان في المهنة أعظم الأساطين، وهو أن أسعد ما في السماء من الكواكب سوف تبارك تركة أبي من علمه، وتراثه من فنون طبه، ولو أدنيت لي يا مولاتي في السفر لمضيت أحاول علاج جلالته وانطلقت أبذل حياتي المضيعة في تجربة برئه، في اليوم المحدود والساعة المعينة.

الكونتيسة: وهل أنت بذلك موقنة.

هيلين: حق اليقين يا مولاتي.

الكونتيسة: لك يا هيلين الإذن والحب والوسائل والأساليب، والخدم والأتباع، فأقرئي السلام لذوينا في البلاط، وسأقيم أنا هنا داعية الله أن يبارك جهدك، ويحقق طلبتك، وليكن السفر غداً، وتقي أنني لن أضن عليك بكل ما في وسعي من مدد وعون ...

(تخرجان.)

^١ كان كل «قاصر» من أبناء الأشراف يوضع تحت رعاية الملك، فهو الوصي عليه وقد توفي الكونت روسيون من عهد قريب، فأصبح غلامه برترام تحت وصاية الملك.

^٢ أي أنه لم يعد يرجو عند الأطباء برءاً، بعد أن عذب نفسه بالأمل، وجاء طول الانتظار مع الزمن فأفقدته الأمل في الشفاء.

^٣ يشير هذا إلى حديث هيلين ولعله كان أفضل أن يأتي بعده مباشرة.

^٤ يذهب أحد الشراح إلى أن مناداتها له «بالمملك» بعد قوله لها «أيتها الملكة» هي إشارة إلى «موناركو» وهو إيطالي مخبول كان في حاشية الملكة إليزابيث ليسليها ويضحكها بجنون العظمة الذي كان مريضاً به.

^٥ كانت العادة ألا يُدفن المنتحرون في المقابر العامة لأنهم اقترفوا جرماً في حق الحياة، وقد شرح المؤلف هذه النقطة في الحوار بين اللحد وزميله في الفصل الأول من رواية «هملت».

^٦ كان الطراز السائد قبل أيام شكسبير أن يوضع المشبك وفرشاة الأسنان في سلسلة فوق الصدر ثم انتهى هذا الطراز، ومن هنا يقول إن بقاء الفتاة عذراء لا تريد الرجال هو طراز قديم انتهى عهده.

^٧ التمرة هنا من التمر أو البلح الذي يُرشق فوق قطعة الفطير، ولكن كلمة تمر في الإنجليزية لها معنى آخر: وهو التاريخ أو الوقت المحدد، وهنا تورية، أي لا تدعي العذرة تفوت أوانها.

^٨ المتن هنا مضطرب، وقد فقدت منه بعض سطور تعلق فيها هيلين على سفر برترام إلى بلاط الملك حيث يجد أعباء جديداً.

^٩ أي أنه سيجد ما يلهو به وكل هذه الأشياء التي عدتها هي نعوت الذين سيختلط بهم، فقد ذكرت «أمًا» أي امرأة في مثل سن أمه، كما ذكرت «العنقاء» وهو في اليونانية «الفقنفس» أي العنقاء وهو طائر خرافي، ثم جاءت بصفة أخرى على سبيل المقابلة في المبالغة وهي قولها طموح ذليل وضعة متكبرة، وبالمثل ما بعدها «وفاقًا متنافرًا، وتنافرًا موافقًا، وكيوبيد الأعمى» هو إله الحب، الأحاديث عن أهل الغرام في البلاط.

^{١٠} أي لا تملك غير التمني.

^{١١} إله الحرب، يريد أن يقول إنه وُلد ليكون جنديًا.

^{١٢} أراد بقوله «وهو في أوجه» إنه جندي عظيم، ولكنها أجابت بقولها «بل في تراجع» أي أنه ليس إلا جنديًا مخفّفًا، يتراجع في القتال ويتقهقر، وحين علل تراجع بقوله «هذا مقصود لغرض» كما يتراجع الجيش أحيانًا ليتخذ مواقع محصنة، أو ليحرص على خط رجعت، ذهبت إلى تعليل آخر بديع وهو الجبن وطلب الفرار فقالت إن شجاعته وجبانتها اتفقتا على الجري وسرعة الخطى.

^{١٣} يبدو أن بارولس من المتأنقين، فهي تضيف إلى قولها السابق مواسية بارولس بالحديث عن تأنقه وهندامه.

^{١٤} هيلين.

^{١٥} إيزابل هي الوصيفة، وكل الوصيفات في العادة يُسمّين بهذا الاسم وللزواج في الانجليزية تعبير جميل وهو «الذهاب إلى العالم» ولعله يماثل تعبيرنا «الدخول إلى الدنيا».

^{١٦} كقول عامتنا عن الزواج إنه «استكمال لدينهم»، وقوله إن الأولاد نعم وبركات اعتقاد ديني عام، وانظر في الحوار التالي كيف يعلل سبب رغبته في الزواج، فهو مليء بالسخرية والتهكم المرير بالأزواج والحياة الزوجية.

^{١٧} هيلين اسم مأخوذ من الإلياذة التي وضعها «هوميروس» شاعر اليونان القديمة لتخليد حرب طروادة، وهذه العبارة كلها مقتبسة من القصة الإغريقية، وقد تخللتها كلمات اعتراضية كقوله: «كذلك قالت»، وهذه العبارة بالذات مأخوذة من الشاعر مارللو الذي سبق شكسبير بقوله: «أهذا هو الوجه الذي أنزل إلى البحر ألف جارية»، وهي جملة مشهورة تتردد على الأفواه. وفي هذا القول الذي جاء على لسان المهرج سطر مكرر عن «الواحدة الصالحة بين تسع طالحات»، وأصل القصة أنه كان للملك بريام عشرة أولاد في حصار طروادة كلهم أحسن البلاء إلا «باريس» فقد هرب، ولكن المهرج عكس الأمر وقلب الموضوع فجعله عن النساء، وهذا ما جعل الكونتيسة تحجب بقولها «لقد شوّهت المقال وأفسدت المثال».

^{١٨} كانت النجوم المذنبة والزلازل تعد نذيرًا بسوء أو حدث خطير كموت عظيم أو نحوه.

^{١٩} أي لتحسنت الفرص للكسب في «النصيب» وكانت نسبة الربح فيها على عهد الملكة إيزابث واحدًا في الأربعين.

- ^{٢٠} التبني والبنوة متنافسان، تريد أن التبني لا يقل عن الأمومة، وقد أرادت أن تبرر هذا فقالت: بل بالعكس إنك لم تتعيني في الحمل والوضع.
- ^{٢١} تعبير جميل عن الدموع قوله: «هذا الرسول الندي»، أي المبلل على وجهك — وتعبيره عن العبرات الواكفة من عينيها «بالطيف الشمسي» أو قوس قزح، وفي الأصل «إيريس» المتعددة الألوان. وكانت عند الإغريق ربة هذا الطيف ...
- ^{٢٢} كل هذا التردد من هيلين في قبول الكونتيسة أمًا لها، يرجع إلى تطلعها نحو الاقتران بالشاب، فهي لا تريد أن تكون أختًا له، فإن ذلك يجعل الزواج به مستحيلًا.

الفصل الثاني

المشهد الأول

(يدخل الملك وفي رففته عدة أشراف من الشباب للاستئذان في السفر ليشتركوا في الحرب الفلورنسية — برترام — بارولس وبعض الحاشية — دق طبول.)

الملك: وداعًا أيها الأشراف الشباب،¹ ولا تنسوا تلك المبادئ العسكرية التي تحدثت إليكم عن وجوب مراعاتها، وأنتم أيها الأمراء وداعًا، وتقاسموا نصيحتي بينكم، فإن خرج الفريقان غانمين، سَهَمَا الغنم جميعًا، وهو كافٍ لهما معًا.

الشریف الأول: نرجو يا مولاي حين نعود عودة الأجناد المدربين أن نجد جلالتكم بخير وعافية.

الملك: كلا، كلا، هيهات، وإن كان قلبي يأبى أن يعترف بأنه يعاني العلة التي تهدد حياتي، وداعًا أيها الأشراف الشباب. وسواء حييت أو مت فكونوا أبناء الفرنسيين الأمجاد، ولتشهدوا إيطاليا العليا، خلا الذين يفيدون من سقوط الملك السابق وذهابه، ولتظهروا أنكم ما جئتم لتخطبوا المحامد، بل جئتم لتبنوا بها، وحين ينزوي أشجع الشجعان عن طلب المجد ومناله، تقدموا لنيله وطلابيه، حتى تكسبوا حمد الشرف وهتافه العالي، أهيب بكم وداعًا.

الشریف الأول: لتستجيب الصحة يا مولاي لأمرك، ولتكن في خدمة جلالتك.

الملك: وأحذركم من بنات إيطاليا، إنهن يقلن إننا نحن الفرنسيين نتقصنا كلمة لا إذا طلبننا، واحذروا أن تكونوا «أسرى» قبل أن تدخلوا المعركة.

الشریفان: إن قلوبنا لتعي تحذيركم يا مولاي.

الملك: وداعًا، تعالوا هنا إليّ.

(يذهب الملك إلى أريكة.)

الشريف الأول: واحدًا لك أيها الشريف المحبب، إنك ستتخلف عنا.

بارولس: ليس ذنب الفتى المتأنق أن يتخلف.

الشريف الثاني: هذه حرب ضروس.

بارولس: وأبدع ما تكون، وقد شاهدتها.

برترام: وقد أمرت بالبقاء هنا لأكون موضوع القيل والقال، سيقولون إنه لا يزال فتى حدثًا، وسيقول آخرون، دعوه إلى العام القادم، فلا يزال الوقت باكراً دونه.

بارولس: إذا كنت مصرًّا على الذهاب يا غلام، فاخرج إلى الميدان خُضه وكن شجاعًا.

برترام: أنا هنا ماكث تحت أمر الغواني، وهدفٌ لعبث الغيد^٢ أنفض نعلي على أديم القصر، حتى ينفذ الشرف، ولا يبقى مع المجد ذمء فلا يحمه من السيوف إلا سيف الرقص مع «الراقصات»، قسمًا لأتسلل إلى الحومة «مسترق» الخطوات.

الشريف الأول: إن في هذا الاستراق شرفًا لمقترفه.

بارولس: ارتكبه يا كونت.

الشريف الأول: أنا ملازم لك وقطعة منك، الآن وداعًا.

برترام: لقد نشأنا معًا، فالانفصال أليم، كنتقطيع الأوصال.

الشريف الأول: إلى اللقاء أيها الرئيس.

برترام: إلى اللقاء يا عزيزي بارولس.

بارولس: أيها البطلان النبيلان، إن سيفي وسيفكما صنوان، حدة ومضاء، وبريقًا وسناء، وتماثلًا في المعدن الكريم والماء، وإنكما لواجدان في فرقة الإسبناي ضابطًا يدعى «سبوريو» وعلى وجهه القبيح شارة حرب، ندبة من جرح إثر طعنة كان حسامي هو طاعنها، فإذا لقيتماه فقولاً له إنني لا أزال حيًّا، واحفظا ما هو عني قائل.

الشريف الثاني: سنفعل أيها الضابط الكريم.

(يخرج الشريفان.)

بارولس: ليرعاكم إله الحرب وليتخذكما تلميذيه المدللين، والآن ماذا أنت صانع ...

(هنا يرتفع ستار فيبدو الملك في مقعده ويتقدم رجال الحاشية به محمولاً عليه.)

برترام: مكانك ... الملك قادم ...

بارولس: كن أكثر احتفالاً بالأشراف النبلاء، فقد رأيتك متحفظاً معهم بارداً في توديعك لهم، ألا زدهم قولاً، وبياناً، لأنهم قوم يحرصون على أن يظهرُوا في أحسن طراز العصر، فامش مشية الجند المعلمين مثلهم، وكُل واشرب وتكلم، واخط على هدي أكثرهم حظوة وأحسنهم قبولاً، واتبعهم واقفُ على آثارهم، وإن كان الشيطان في الرقص رائدهم، وكن في وداعهم أكثر تبسطاً وإسهاباً.

برترام: وإني لفاعل.

بارولس: إنهم أمجاد وأكبر الظن أنهم سيثبتون بحسن البلاء، وأنهم من المجالدين الأشداء.

(يخرجان.)

(ينزل خدم الملك المقعد — ويدخل لافيه.)

لافيه: اغفر لي يا مولاي ولما أحمله من أنباء.

(يجثو أمام الملك.)

الملك: انهض وارفع التكليف.

لافيه: هاأنذا أنهض بعد أن نلت المغفرة، وددت لو أن مولاي جثا ليسألني المرحمة، ونهض بأمرى من جثوته.

الملك: وددت لو أنى فعلت، لأكسر رأسك ثم أسألك المرحمة، ثم استطعت أن تقف حين أمرك في الوقوف.

لافيه: في الحق أنك ضربت ولكن لم تصب،^٢ إن الأمر وما فيه يا مولاي هو هل تريد البرء من علتك؟

الملك: كلا.

لافيه: يا عجبًا، ألا تأكل عنبًا أيها الثعلب الملكي؟ ... بل والله إنك لآكل من الأعناب الطيبة لو أن الثعلب العظيم استطاع الوصول إليها، لقد اهتديت إلى طيبة تقدر على أن تتفخ الحياة في الصخر، وتجعلك ترقص رقصة الكروان وتملأك روحًا وحرارة وحركة، وتكفي لمسة واحدة منها لتهض من قبر الملك «بيان»، وتضع القلم في يد شارلمان ليكتب لها رسالة حب وهيام.^٥

الملك: ومن تكون هذه؟

لافيه: هي طيبة قدمت إلينا يا مولاي وليتك تراها، وأقسم بأيماني وشرفي، لو أنني أردت الجد في التعبير، بدون الهزل في قلبي، لقلت إنني تحدثت إلى امرأة أجارتني بأنوثتها وسنها، وقدرتها، وحكمتها، وصدق عزيمتها، حتى استولت عليّ دهشة لا أستطيع أن أعزوها إلى ضعفي فهلا أذنت في مثلها بين يديك، (لأن لقاءك هو طُلبتها) لتعرف ما تريد؟ بأن تعجب كيف استولى عليك هذا العجب.

الملك: هات إذن يا لافيه موضع إعجابك، حتى نقاسمك العجب، أو نزيله عنك، وبأن نعجب لك كيف أعجبك.

لافيه: وأنا سأصعد بأمرك، ولن يستغرق ذلك شيئًا.

(يخرج مسرعًا.)

الملك: من يكثر من المقدمات لا يأت بشيء.

لافيه: والآن أقبلي.

(يعود ويفتح الباب لهيلين فتدخل.)

الملك: إن لهذه العجلة جناحين حقًا.^٦

لافيه: أقبلي ... ها هو ذا جلالته، تحدثني إليه عما يجول في خاطرك، إنك لتلوحين دجالة، ولكن جلالته قلما يخشى هذا النوع من الدجالين، وأنا عم كريسيديا^٧ لا أحجم عن أن أترك الاثنين في خلوة معًا ... إلى الملتقى.

(يخرج.)

الملك: إيه أيتها الحسنة، هل لعملك صلة بنا.

هيلين: أجل يا مولاي الكريم، لقد كان جيرار دي نارمون أبي الذي عُرِفَت في المهنة براعته.

الملك: إني كنت أعرفه.

هيلين: حسبي معرفتك له فهي تغنيني عن إزجاء المديح إليه، وقد أعطاني وهو على فراش الموت عدة وصفات، أخصها وصفة جاءت أعز ثمرات عمله وأعلى نتائج تجاريبه، وأمرني أن أحتفظ بها، وأحرص عليها كأنها عين ثالثة، بل أوفر أمانًا من عيني الاثنين، فصدعت بأمره، وقد سمعت بما مس جلالكم من علة قاسية، تعد عطية أبي فعالة الأثر في البرء منها، فجئت لأقدمها وأستخدمها بكل خضوع وخشوع.

الملك: نشكر أيتها العذراء، وإن كنا لا نصدق أنها الكفيلة لنا بالشفاء، بعد أن تركنا أكبر أساتذتنا علماء، وأجمع معاشر الأطباء، على أن «الفن» مهما بذل لا يستطيع أن ينقذنا مما جرت به سنن الطبيعة ومن تلك الحال التي ليس منها شفاء — أقول إنه لا ينبغي أن نسيء إلى حكمنا وتقديرنا، أو نفسد أمنيته وأملنا، بتعريض دائنا العضال، للتجارب التي لا تقوم على أساس من العلم الصحيح، ولا نرضى لأنفسنا وكرامتنا أن نتعلل بدجل تافه سخي، بعد أن عجزت كل معونة.

هيلين: حسبي أنني أدبت واجبي، فلا أحاول أن أرغمك على قبول خدمتي إرغامًا، ولكني بكل خشوع ألتمس من خواطرك يا مولاي خطرًا متواضعًا أعود به من حيث أتيت.

الملك: لن أهبك أقل من شكري وعرفاني، فقد خطر لك أن تمدي إلي يد العون، وأني لشاكر لك شكر الميت للذين يرجون له الحياة، ولكني أعلم حق العلم ما لا تعلمين شيئًا منه، أنا أعرف كل ما بي من سقم، وأنت لا تعرفين «فئًا».

هيلين: لا بأس أن أحاول ما أستطيع، ما دمت مصممًا على رفض العلاج، إن من يؤدي أخطر الفعال، ويتم أعظم الأعمال، كثيرًا ما يستعين عليها بأضعف الأعوان، وقد رأينا في الكتاب المقدس الولدان قضاة أهل سداد ورجحان، وشهدنا القضاة في حكمهم كالولدان،^٨ وإن أعظم الفيضانات قد ينبعث من أقل الموارد، وأصغر النبعات، وإن البحار نضبت حين أنكرت المعجزات وكذبت،^٩ وكثيرًا ما يخيب الذي كان متوقعًا وأكثر ما يكون ذلك حيث يصبح الأمل أعظم ما يكون قوة، وغالبًا ما يتحقق ما كان الأمل فيه واهيًا واليأس منه قويًا.

الملك: لا ينبغي لي أن أستمع إليك، وداعًا أيتها العذراء الحنون الكريمة، وستجزي نفسك بنفسك على جهودك التي لم تستثمر، ولئن لم أتقبل ما عرضته، ولم أستجب لما سألته، فليكن شكري لك هو الجزاء.

هيلين: يا للكفاية المهملة حين تذار بالقول عن مرادها ... ليس هذا شأن العليم الخبير بكل شيء، ولكنه شأننا نحن ودأبنا نعتد على المظاهر وحدها في كل حسنا وتفكيرنا، وندعي ما ليس من صنعنا، ونزعم أن ما فعله الله هو من فعلنا، أيها العزيز تقبل محاولتي، ومن السماء، لا مني، فلتجرب تجربتي، ما أنا

بدجالة، ولا مدعية ما ليس لي، ولا بزاعمة شيئاً أنا عنه عاجزة، ولكني أعرف ما أعتقد، وأعتقد يقيناً أنني أعرف، إن فني ليس عاجزاً، وإن مرضك ليس لحدود البرء متجاوزاً.

الملك: أنت واثقة إلى هذا الحد، وفي أي فترة تؤملين لي البرء.

هيلين: بعون الله، قبل أن تتم جياذ الشمس التي تحمل مشعلها المتقد دورتها مرتين، وقبل أن تطفئ في بحر المغرب الأعظم مصباحها الناعس الخافت إطفاءتين، أو تنبئ ساعة الربان دقائقها المختلسة كيف تمضي أربعاً وعشرين مرة، يزول كل ما بجسمك السليم من سقام، وتحيا الصحة فيه خلية من كل دواء، ويموت المرض موتاً، وتقنى العلة فناء.^{١٠}

الملك: وما الذي به تغامرين، إزاء هذه الثقة، وهذا اليقين؟

هيلين: إذا لم يتحقق يقيني، فاعددني عديمة الحياء، جريئة جرأة العاهرات، معلنة العار، في أهجى القصائد والأشعار، وليبدل اسمي «العذراء»، بنقيضه في الصفات والأسماء، ولتنته حياتي بعذاب الهوان، وهو ما لا يمكن أن يكون أسوأ من ذلك السوء.

الملك: يخيل إليّ أن في كلامك روحاً مباركة تتحدث، وفي ضعفك صوتاً قوياً ينبعث، وأن ما يبدو مستحيلًا أن أنظر إليه في ضوء العقل العادي قد يكون مستطاعاً أن أنظر إليه من نواح أخرى، إن حياتك غالية، لأنها استوفت فيك كل ما يتطلبه معناها، ويعز قدرها من قيم، الشباب، والجمال، والحكمة، والشجاعة، وكل ما في إمكان السعادة ونضرة الشباب، أن تسمياه سعادة، وأن تغامري بذلك كله ليدل على أنك حتماً ذات مهارة بالغة، وحذقاً متناهياً، أو يوحى بتهور شنيع، أيتها المتطيبة الحسنة، سأجرب دواعك، فإن مت منه، فسيؤدي هذا إلى موتك.

هيلين: إذا تجاوزت الوقت المحدد، أو أخفقت في أي جزء صغير مما وعدتك به، فدعني أمت بغير رحمة أو رثاء، لأنني للموت عندئذ مستأهلة، وهو لي في الحق جزاء، وليكن الموت على العجز أجري، ولكن بم أنت واعدتي، إذا كان النجاح حليفي!

الملك: اطلبي، توهبي.

هيلين: أحقاً أنت منجز ما تعد؟

الملك: أجل، بسلطان صولجاني، وأملي في الله.

هيلين: أتهبني عندئذ بيدك الملكية، أي زوج في مملكتك أشاء على أنني لن تبلغ بي الغطرسة أن أختاره من بيت الملك في فرنسا أو أن أقرن اسمي المتواضع الصغير، باسم أي فرع منه، أو من يمثله، بل إن

هذا الذي أتحدث عنه من أتباعك، وأنا أعرف ألا ضير عليّ في أن أطلبه ولا يعز عليك أن تجيبني إلى طلبي.

الملك: هذه يدي، موثق موعدني، وسيكون لك عندي، ما تشاءين، فعيني الزمن الذي تطلبين، لأنني أنا مريضك الذي عقد نيته، سيضع ثقته فيك على الدوام، إنني سأسألك فوق ما سألت، ولا بد لي من ذلك السؤال، وإن كان الازدياد من طلب المعرفة لا يدل على زيادة في الثقة من أين أتيت، وكيف نشأت — ولكني مُرَحَّبٌ بك بدون سؤال ومكرمك بدون أن تداخلني في أمرك ريبة — وإذا مضى عونك كعهذك، لم يكن ما أعمله لك أقل من عملك.

(طبول — ينصرفان.)

المشهد الثاني

(تدخل الكونتيسة والمهرج.)

الكونتيسة: أقبل يا هذا فإنني ممتحتك لأرى إلى أي مدى تبلغ آدابك، وإلى أي حد يمكن أن يكون في المجتمع الرفيع مسلكك.

المهرج: سوف أترأى حسن التغذية، رديء التربية،^{١١} وأنا أعرف أن المهمة التي سأمتحن بها لن تتعدى الذهاب إلى البلاط.

الكونتيسة: لا تتعدى الذهاب إلى البلاط! أي مكانة خاصة تتبوأ، حتى تقول إلى البلاط بهذه السخرية؟

المهرج: حقًا يا مولاتي، إذا وهب الله إنسانًا شيئًا من الآداب، تيسر له أن يخلعها في البلاط، ومن لا يستطيع أن يطوي ساقًا ويرفع قبعة، ويُقَبَّل يدًا، ولا يقول شيئًا، فليست له ساق ولا يدان، ولا شفة ولا قبعة، ومن كان هذا شأنه، فهو في واقع الأمر، إن شئت الدقة لا يصلح للبلاط، أما أنا، فإن عندي لكل الناس الرد الصالح.

الكونتيسة: حقًا إنه لرد كريم يصلح لكل سؤال.

المهرج: إنه مثل «كرسي» الحلاق، يصلح لكل الأعجاز، الناحل، والسمين، والمفتول، وأي عجز.

الكونتيسة: أ يصلح ردك لكل الأسئلة.

المهرج: كما تصلح عشرة قروش ليد وكيل مفوض، والريال الفرنسي للبغّي ذات الثوب الحريري الخفيف، وخاتم زواج فلان في أصبع فلانة^{١٢} وقطعة الفطير لثلاثاء الزفر، ورقص المغاربة لعيد الربيع،^{١٣} والمسمار للشق الذي يدخل فيه، والديوث لقرنه، وكما تصلح الفاجرة اللوامة للوغد الشرس، وشفة الراهبة لفم الراهب، والحشو للأديم الذي يحويه.

الكونتيسة: إني أسألك هل لديك ردّ يصلح لكل الأسئلة.

المهرج: إن ردي يصلح لأي سؤال ممن هم دون «الدوق» عندكم إلى من هم تحت «الكونستابل».

الكونتيسة: لا بد أن يكون ردّا ضخم الحجم حتى يصلح لكل المطالب.

المهرج: ولكنه قد لا يكون إلى حد ما في الحقيقة، إذا تحدث العارفون عنه على حقيقته، ها هو ذا بكل ما يتعلق به، سألني هل أنا من رجال البلاط، ولا تخشي من الجواب ضيرًا.

الكونتيسة: ليتنا نعرف كيف نعود إلى الشباب لنلهو، إني في توجيه هذا السؤال إليك سأكون خالية من الفطنة، ولكني أرجو أن أصيبها من ردك، قل لي من فضلك يا سيدي هل أنت من أهل البلاط؟

المهرج: مولاي وسيدي،^{١٤} هذا سؤال لا رد لي عليه غير تأجيله، أسألي سؤالاً آخر، مائة من الأسئلة.

الكونتيسة: إني صديقة لك مسكينة، صديقة تحبك.

المهرج: مولاي وسيدي ... هذا كثير ... هذا كثير ... لا تتخلي عني

الكونتيسة: أظنك يا سيدي لا تأكل من هذا اللحم المنزلي ...

المهرج: مولاي وسيدي، بل ها أنا أناشدك.

الكونتيسة: أحسبك يا سيدي قد ضربت بالسوط من عهد قريب.

المهرج: مولاي وسيدي، لا تتركيني.

الكونتيسة: هل تصيح «مولاي وسيدي» عندما تُسأط، وهل تقول «لا تتركني»؟، حقاً إن صيحتك «مولاي وسيدي» لأنسب لازمة لضربك، وخير رد على جلدك، إذا شد له وثاقلك، وكان فيه قيدك.

المهرج: لم أشهد في حياتي أتعس حظاً مني في قولي «مولاي وسيدي» وأعتقد أن الأشياء قد تخدم المرء طويلاً، ولكنها لا تخدمه دائماً.

الكونتيسة: إنني أضيع وقتي عبثاً كَرَبَّةً بيت في التفكُّه مع مهرج.

المهرج: مولاي وسيدي ... ها هي ذي تخدم الآن مرة أخرى.

الكونتيسة: كفى هذرًا يا هذا ... خذ هذا الكتاب إلى هيلين وقل لها تعجلي بالجواب، وأقرئي قومي وابني السلام وليس هذا بكثير.

المهرج: ليس بكثير إقراؤهم السلام.

الكونتيسة: أنت فاهم مرادي. ليس بعمل كثير لك.

المهرج: بكل إخلاص سأكون هناك قبل ساقى.

الكونتيسة: وعُدْ بمثل عجلتك ذاهبًا.

(يخرجان.)

المشهد الثالث

(يدخل برترام ولافيه الشيخ وبارولس.)

لافيه: يقولون لقد مضى عهد المعجزات، ولا نزال نرى بيننا من «المتفلسفة» من يجعلون الخوارق والأحداث التي لا ترجع إلى علل ومسببات، شيئاً مألوفاً، وأمرًا عاديًا، ولم نعد نخشى الخوارق، بل نحاول تحليلها أحيانًا، بظواهر الطبيعة ونواميسها،^{١٥} وكان أولى بنا أن نرتضيها كما هي إيمانًا، ونعدها خارقة يقينًا.

بارولس: إنها لأندر أعجوبة ظهرت في أيامنا هذه.

برترام: إنها لكذلك.

لافيه: أن ييأس من برئه الأساطين.

بارولس: هذا ما أقول وجالينوس وباراسيلسوس كذلك.^{١٦}

لافيه: وسائر العلماء والجهابذة.

بارولس: حقًا.

لافيه: الذين حسبوا علتة مستعصية عضالاً.

بارولس: هذا هو عين ما أقول.^{١٧}

لافيه: ليس في وسعنا أن نقول غير ما قلنا.

بارولس: حقاً. وفي الواقع. كأن رجلاً يؤكد له.

لافيه: إن حياته في خطر وموته محقق.

بارولس: قلت حقاً، وهو ما كنت أنا قائله.

لافيه: والحق أقول إنها لحدث جديد في العالم.

بارولس: هو كذلك في الواقع، ولو عرض على الناس لقرأته فيما يدعونه.

لافيه: «بحث في المعجزات السماوية، على أيد بشرية».^{١٨}

بارولس: تماماً، وهو ما كنت قائله بعينه.

لافيه: إن درفينك ليس أكثر بأساً^{١٩} إنني أتكلم عن ...

بارولس: إنه لغريب، بل جد غريب، هذا هو جملة الأمر وتكراره، وهو وإن كان ذا الروح الشريرة لا يريد أن يعترف بأنه ...

لافيه: من صنع السماء.

بارولس: نعم، هذا ما أقوله.

لافيه: إن في أضعف الخلق.

بارولس: وأوهنهم قوة عظيمة، وسموًا بالغًا، قد تنتفع بها في شيء آخر غير شفاء الملك من علتة حتى ...

لافيه: حتى يظفر بشكر الناس جميعًا وعرفانهم.

(يدخل الملك وهيلين والحاشية.)

بارولس: كنت أريد أن أقول ذلك. لقد أحسنت القول، ها هو ذا الملك قادم.

لافيه: شيء يفرح، ليتني أظفر بفتاة كهذه وأنا لي سن في فمي يا عجباً، إنه ليستطيع أن يتقدم بها إلى حلبة رقص.

بارولس: عجباً ... أليست هذه هيلين.

لافيه: إي والله، إنني لأظنها هي.

الملك: اذهبوا ادعوا إلي كل أشرف البلاط وساداته، واجلسي يا منقذتي بجانب مريضك. وبهذه اليد الموفورة العافية التي رددت إليها إحساسها الذاهب تلقي مرة أخرى تأكيد وعدي لأنه لا ينتظر غير أن تعيني من هو ليكون لكي ما تشاءين.

(يدخل ثلاثة أشرف أو أربعة ويقفون أمام الملك وينضم إليهم برترام.)

أيتها الحسنة أرسلني بصرك إلى هؤلاء الشباب، من الأشرف العزاب، ها هم أولاء يقفون ماتلين ينتظرون هبتي، وسيادة سلطاني، وصوت أبوتي، فمن حقا أن تختاري، وليس لأحد أن يرفض.

هيلين: لكل منكم حسنة ذات خلق، إذا شاء الحب أن يجعلها من نصيبه، إلا واحداً.

لافيه: إنني لأنزل عن حصاني «كيرتال» بسرجه وعدته، لو كان لي أسنان كهؤلاء الفتيان، ولحية قصيرة كلحاهم.

الملك: تأملهم طويلاً، لا من شاب بينهم إلا من أب ماجد.

(تتقدم إلى أحدهم.)

هيلين: أيها السادة، إن الله قد رد على يدي إلى الملك صحته.

الجميع: لقد علمنا ذلك ونحمد الله إليك.

هيلين: لست إلا فتاة خفزة، أعز ما تملك الحياء،^{٢٠} وأعلى ما عندها الخفر، وها أنذي يا صاحب الجلالة أستشعره، ولا أنكره، إن الحمرة التي علت الوجنتين تهمس لي «أن أستحي من أن تختاري، فترفضي، فليعد البياض إلى الوجنة أبداً، ولن أعلو لك صفحة ولا أصعد خذاً».

الملك: اختاري، وانظري، من ياب حبك، ياب حبي كله.

هيلين: الآن من معبدك يا ديانا أطير،^{٢١} وإلى الحب الجليل، ذلك الإله الرفيع، تتدفق زفراتي.

سيدي هل تستمع إلى خطبتي؟

الشريف الأول: وأوافق عليها.

هيلين: شكرًا يا سيدي وهذا حسبي.

لافيه: إنني لأؤثر أن أكون في هذا الاختيار، على أن أرمي النرد على الحياة أو الموت فأصيب الخسارة.

هيلين: إن الشرف يا سيدي الذي يتقد في عينيك الجميلتين يجيبني قبل أن أتكلم متوعدًا، مهددًا، إن الحب يجعل قدرك فوق من تريدك، عشرين مرة، وفوق حبها المتواضع.

الشريف الثاني: لا أرجو مزيدًا.

هيلين: إن رغبتني هي أن تتلقى ما يمنح الحب العظيم، وبهذا أنصرف.

لافيه: أكلهم رافض سؤالها، لو كان هؤلاء أولادي، لأمرت بجلدهم أو لبعثت بهم إلى التركي ليجعل منهم خصيانًا.

هيلين (إلى شريف آخر): لا تخش أن أتناول يدك، لأنني لا أريد أن أسيء إليك إكرامًا لك وإنما أدعو لك بالبركات، وأن يسعدك الحظ فتجد في فراشك خيرًا مني إذا تزوجت.

لافيه: كأن هؤلاء فتيان من الجليد، لأن كلهم لا يريدوها، لا شك عندي في أنهم ليسوا من أبناء الإنجليز، ولا هم من أصلاب الفرنسيين.^{٢٢}

هيلين: أنت من حادثة السن، ونقاء خاطر، ووفرة الطيبة بحيث لا تصلح أن تأتي بولد من دمي.

الشريف الرابع: لا أظن ذلك أيتها الحسنة.

لافيه: لا يزال هنا واحد يجري في عروقه دم طيب من أبيه، فإذا لم تكن أنت حمارًا، فأنا غلام في الرابعة عشرة، لقد عرفتكم من قبل.

هيلين (لبرترام): لا أجرؤ على القول بأنني آخذك، بل أقول أعطيك، نفسي وإخلاصي ما دمت حية، أسترشد بعونك، وأستلهم قوتك، هذا هو الرجل الذي أريده.

الملك: إذن أيها الشاب برترام، خذها إنها زوجك.

برترام: زوجتي يا مولاي؟ إنني ألتمس من جلالتك أن تأذن لي في هذا الأمر أن أستعين عيني، وأستوحي فيه ناظري.

الملك: ألا تعلم ماذا صنعت لي؟

برترام: أجل، يا مولاي الكريم، ولكني لا أرجو يومًا أن أعرف لِمَ ينبغي أن أتزوج بها.

الملك: أنت تعلم أنها أنهضتني من فراش مرضي.

برترام: ولكن أيستلزم هذا يا مولاي أن تُعرضني للمهانة والعار، أفهل من واجبي أن أتحمّل أنا نتيجة برئك؟ ... إنني أعرفها حق المعرفة، لقد كان أبي هو الذي تولى تنشئتها، أفأخذ ابنة طبيب فقير لي زوجًا، سيلحقني بذلك عار لا ينمحي أبدًا.

الملك: إن ما تحتقره من شأنها مرده إلى القلب وحده، وفي وسعي أن أهبط إياه، ومن عجب أن لا نفترق في الدم، ولا في اللون، ولا في الوزن، ولا في حرارة البدن، ولكننا مع ذلك كله لا نزال في أمر الألقاب جد مختلفين، وإذا كانت الفتاة ربة فضائل (ولا ينقصها إلا ما تكرهه فيها وهو أنها فتاة فقيرة ابنة طبيب)، فإنك إذن تكره الفضيلة من أجل المحتد واللقب، ولكني أربأ بك أن تفعل، وإذا أتت المكارم من المكان الأوهى، شرف المكان بما يفعله شاغله، أما إذا ضخمت الألقاب، وازدهينا بها، بغير خلال، فشرفها أجوف، والمجد بها مزيف، إن الخير وحده هو الخير بغير لقب، وكذلك شأن الشر، لا يؤخذ بلقبه وخطره، وإنما يؤخذ بفعله وأثره، إنها فتاة، حكيمة، جميلة، ورثت كل هذه المحامد من الفطرة ذاتها، وحسب ذلك للشرف الرفيع بانيًا، وعن اللقب الكبير مغنيًا، وما يترأى شرفًا موروثًا، ويدعي أنه جاء من المنبت مغروسًا، هو من الشرف سخرية، إذا لم يكن مماثلًا لمن ورث منه، إن الشرف لينمو بأعمالنا ويبيد ويذخ ويسمو بفضل فعالنا، لا بأسلافنا، وألقاب آبائنا، إن كلمة «شرف» مزدرة على كل قبر، وهي نصب كاذب على كل حدث، وكثيرًا ما تكون نصبًا أخرس أصم، فوق تراب يُهال ويركم ونسيان وعدم، فوق العظام الشريفة حقًا، وماذا عساك أن تقول؟ ... إذا لم تستطع أن تقبل هذه المخلوقة فتاة عذراء، فإنني بالباقي لزعيم، بائنيتها هي ذاتها وفضيلتها، أما الشرف واليسار فأنا كفيل بهما.

برترام: لا أستطيع أن أحبها، ولا أن أحاول أن أحبها.

الملك: إنك لظالم لنفسك إذا حاولت أن تختار.

هيلين: حسبي يا مولاي أنك استرددت عافيتك، ودع ما دون ذلك.

الملك: إن شرفي أصبح مهددًا، فلأفزع إلى سلطاني، دفاعًا عنه وذودًا، اسمع أيها الغلام المتكبر المتعجرف، تناول يدها، إنك بهذه الهدية الكريمة غير خليك، وأنت بهذه السخرية المنكرة تنتقص من حبي ومن قدرها، ألا تدري أننا لو وضعنا قدرنا معها في الكفة المرجوحة، لشالت كفتك، ألا تعلم أننا نحن الذين ننبت شرفك حيث نشاء أن ينمو وينضر، دع عنك هذا الازدراء، وأطع مشيئتنا، لأنها تعمل

لخيرك، ولا تصدق زهوك وخيلائك، وبادر إلى إيتاء نفسك حقها الذي يفرضه الواجب عليك، ويتطلبه سلطاننا منك، وإلا لَفَطْنُكَ من عطفي إلى الأبد، وألقيت بك إلى التيه، والتشرد، وتركتك لفراغ الشباب والجهل، وأطلقت موجدتي وكراهيتي تفترسانك افتراسًا، باسم العدالة، بدون رحمة، تكلم، قل ما جوابك؟

برترام: عفواً أيها المولى الكريم، إني أعرض ولائي وحيي على عينيك، وبعد أن شهدت كيف تنفذ في العظام مشيئتك، ويطير الشرف الباذخ حيث تأمره أن يطير، رأيت التي كانت بالأمس في خاطري أحقر المخلوقات، تصبح اليوم موضع إطراء الملك، فكأنها بهذا التشريف وُلدت شريفة، وجاءت من المنبت من المكرمات.

الملك: خذها باليد وقل لها إنها صاحبتك، وإني لواعدها عدل ذلك عطاء، فإذا لم يكن بقدر ما أوتيت، فأكثر منه، ولدينا مزيد.

برترام: أتقبل يدها.

الملك: الحظ السعيد، وحظوة الملك يباركان هذا القران وسيتلوه الزفاف على الأثر، فيقام الليلة بالذات، بعد توقيع الأوراق القانونية وقد أُعدت من قبل، أما الاحتفال الرسمي فسيؤجل حتى يقدم الصحاب الغائبون، وإذا أحببتها كان حبك في عيني فريضة مقدسة، وإلا كان النقيض خطيئة وإثمًا.

(يخرجون عدا لافيه وبارولس للتعقيب على هذا القران.)

لافيه: هل سمعت يا سيد؟ أريد كلمة معك.

بارولس: أمرك يا سيدي.

لافيه: لقد أحسن مولاك وسيدك في تراجعته عن إباطه.

بارولس: تراجعته؟ مولاي ... سيدي؟!

لافيه: نعم، أليس هذه لغة مفهومة وكلامًا واضحًا؟

بارولس: أغلظ لغة وأخشن كلام، ولا يمكن أن يفهم، بغير سفك دم،^{٢٣} أتقول عنه أنه سيدي؟

لافيه: أنت إذن رفيق للكونت روسيون وند له ...

بارولس: ند لأي كونت، ولكل كونت في العالم، ولكل رجل.

لافيه: لكل رجل في خدمة الكونت، أما سيد كونت فمن طراز آخر.

بارولس: أنت شيخ هرم، فلتقنع بهذا الذي أنت فيه.

لافيه: لتعلم يا هذا أنني رجل، وهي صفة لن تكسبك الشيخوخة منها شيئاً.

بارولس: إن ما أجرؤ على فعله وأحسنه، لا أفعله.

(يضع يده على مقبض سيفه.)

لافيه: لقد ظننتك بعد جلستين إلى العشاء إنساناً أريباً عاقلاً، لأنني سمعتك تتحدث بإسهاب عن رحلاتك، فقلت جائز، ولا بأس، ولكن ثيابك وشارتك صرفتني كثيراً عن اعتقادي أنك وعاء ثقيل الحمل، كبير الوزن، لقد اكتشفتك الآن، فلا أراع إذا أنا عدت ففقدتك، إنك مخلوق لا تصلح إلا لأن تكون نفراً في الجندية وإن لم تكن بهذا خليفاً.

بارولس: لولا أنك طاعن في السن، لما ...

لافيه: لا تستسلم كثيراً للغضب، فتعجل بنفسك، رحمة الله عليك، إنك لدجاجة «قواق»، إلى اللقاء إذن يا نافذة ذات قضبان متقاطعة،^{٢٤} لا حاجة بي إلى أن أفتح إطارها، لأنني اخترقك بناظري، هات يدك.

(يمد إليه يده.)

بارولس: يا سيدي إنك لتزدريني أبشع ازدراء.

لافيه: أجل من كل قلبي، وأنت به جدير.

بارولس: لا أستحق هذا يا سيدي منك.

لافيه: بل يمين الله أنت مستحق لكل درهم منه، ولن أنقصك مثقال ذرة.

بارولس: سأزداد عقلاً.

لافيه: أسرع قدر جهدك، لأنك لن تلبث أن تذوق طعم النقيض وتترك بعد هذا الفعل الذي تدعيه أنك أحق، ولو قدر لك يوماً أن يشد وثاقتك بملفعتك، وتضرب، لعرفت عندئذ كيف تفاخر وتزهى بمهانتك ورباط مذلتك، إنني لأود أن أمتنع عن معرفتك أو بالحري عن علمي بك، حتى أستطيع إذا احتاج الأمر أن أقول إنني عرفت رجلاً.

بارولس: إنك يا مولاي تغضبني غضباً لا يُحتمل مطلقاً.

لافيه: لوددت أن يكون عذاب الجحيم لك، وأن يبقى عملي هذا القليل قائماً إلى الأبد، لأنني فت زمان العمل وتجاوزته، كما أفوتك الساعة وأتجاوز عنك مسرعاً قدر ما تسمح به سني المتقدمة.

(يخرج.)

بارولس: إن لك ابناً سيحمل هذه المعرة عني أيها الشريف الشيخ القذر الأجرى، ولكني لأخذن نفسي بالصبر والتجلد، فلا جدوى من منازعة أهل السلطان، ومجادلة ذوي الجاه والنفوذ، وحق حياتي إذا لقيته في وقت مناسب لضربته ولو كان مائة شريف في بعضهم البعض، ولن تأخذني بسنه رحمة، سأضربه إذا أنا لقيته مرة أخرى.

(يدخل لافيه.)

لافيه: يا هذا، إن مولاك وسيدك قد تزوج، هذا نبأ جديد لك ... ستكون لك مولاة وسيدة جديدة.

بارولس: أرجوك يا مولاي مخلصاً أن تقلل من إهاناتك، وتترفق قليلاً في غلوائك، إنه مولى كريم، أما سيدي الذي أدين له بالطاعة فهو الذي فوقنا.

لافيه: من ... الله؟

بارولس: أي نعم يا سيدي.

لافيه: بل الشيطان مولاك، لماذا أراك تربط ذراعيك في هذا الثوب الرخيص الكم، أتجعل من كميك جورباً، وهل يفعل الخدم الآخرون هذا، لخبر لك لو أن جُزءَكَ الأسفل كان حيث يقف منخارك، وشرفي لو أنني كنت أصغر سنّاً مني بساعتين اثنتين لضربتك، ليخيل إليّ أنك إهانة للناس عامة، وأن على كل إنسان منهم أن يضربك، وأعتقد أنك إنما خلقت لينفس الناس فيك صدورهم.

بارولس: هذه معاملة أليمة لا أستحقها يا مولاي.

لافيه: حسبك يا سيد لقد ضُربت في إيطاليا لأنك سرقت حبة رمان، وأنك لشريد عيَّار،^{٢٥} لا أخو رحلات حقاً ولا صاحب أسفار، وليس لك حق في الانتساب إلى السادات الكبار، والانتماء إلى الأشراف وذوي الأقدار، لأنك عديم النسب، غير مذكور في دفاتر الشرفاء ولا مدون في القوائم والسجلات،^{٢٦} ولا أحسبك تستحق كلمة أخرى وإلا لقلت لك إنك وغد، إنني تاركك.

(يخرج — ويدخل برترام.)

بارولس: بديع ... بديع جداً، لقد تم الأمر إذن ... بديع، بديع جداً، دع الأمر مكتوماً إلى حين.

برترام: لقد قُضي عليّ، وتُركت للهموم والمتاعب إلى الأبد.

بارولس: ما الخبر، يا حبيبي؟

برترام: لن يحتويني فراش بجانبها، وإن كنت قد أقسمت بين يدي الكاهن.

بارولس: ماذا تقول، ماذا تقول يا حبيبي؟

برترام: أواه يا بارولس، لقد زوجوني مكرهاً، إنني منطلق إلى حروب تسكانييا، ولن أعاشرها.

بارولس: إن فرنسا جحر للكلاب ولا تستحق أن يطأها الإنسان بقدميه، فإلى الحرب إذن.

برترام: لقد جاءت رسائل من أمي، ولكنني إلى الساعة لا أعلم ماذا تحوي.

بارولس: لا بد من معرفة ما فيها، إلى الحرب يا بني ... إلى الحرب، إن من يقيم هنا مع زوجة لينعم بالعناق والأحضان، كمن يحتجز الشرف في صندوق خفي لا يراه إنسان، مستنفداً رجولته بين ذراعيها، وأولى بهذه الرجولة أن تُدخر لوثبة الحصان في سعة الحرب، وحومة الميدان ... فهلم إلى إقليم غير هذا الإقليم، إن فرنسا إسطنبول، ونحن الذين نقيم فيها خيل لا بالكرام المطهومات، ولا بالجياد الصافنات، فإلى الحرب.

برترام: ليكونن هذا، وسأردها إلى دارنا، وأنبئ أمي عن كراهيتي لها، وإلى أني أنا فازع لاجئ، وأكتب إلى الملك ما لا أجرؤ على قوله، إن عطيته ستدفع بي إلى الميادين الإيطالية التي يصل فيها الفتيان الكرام ويجولون، إن الحرب لأهون من بيت مظلم، وزوج مكروه.^{٢٧}

بارولس: هل أنت واثق من أن هذه النزعة الفجائية ستستقر في نفسك؟

برترام: تعال معي إلى مخدعي، لأستصحك، سأردها بغير توانٍ، وغداً إلى النزال والطعان، أما هي فإلى الأشجان وحدها والأحزان.

بارولس: إن هذه الكرات الوثابة^{٢٨} تحدث أصواتاً، وإن هذا الأمر ليحز في نفسي، إن الشاب المقترن، هو بالبلىة مقرر،^{٢٩} فانطلق إذن واتركها بشجاعة وكرم، اذهب، لقد ظلمك الملك بهذا القران، ولكن عليك بالكتمان.

(يخرجان.)

المشهد الرابع

(تدخل هيلين والمهرج.)

هيلين: إن أمي لكريمة في تحياتها وسلامها، أهي بخير؟

المهرج: ليست بخير، وإن كانت بصحتها، وهي في أشد المرح، ومع ذلك فليست بخير، والحمد لله والشكر، على أنها بخير، وليست بها إلى الدنيا حاجة، بيد أنها ليست بخير.

هيلين: إذا كانت بخير، فما يسقمها حتى لا تكون بخير؟

المهرج: إنها في الحقيقة بخير تام إلا من أمرين.

هيلين: وما هما هذان الأمران؟

المهرج: أولهما أنها ليست في السماء، إلى حيث يرسلها الله عاجلاً، والآخر أنها في الأرض، من حيث يرسلها الله سريعاً.^{٣٠}

(يدخل بارولس.)

بارولس: بوركت أيتها السيدة السعيدة الحظ.

هيلين: أرجو يا سيدي أن يكون لي إخلاصك ويكون لك سعادة حظي.

بارولس: لقد دعوت لك من قبل أن تحتفظي بها، فإن الاحتفاظ بها معناه أنها لا تزال باقية،^{٣١} وأنت أيها الشقي كيف «تفعل» مولاتك العجوز.

المهرج: لكي تكون لك غضونها، ويكون لي مالها، وددت لو أنها «فعلت» كما تقول.^{٣٢}

بارولس: أنا لم أقل شيئاً.

المهرج: والعذراء إنك لحكيم، لَكَمْ من رجل أوتي لساناً يسبب هلاك مولاه، إنك ستقضي الجزء الأكبر من حياتك لا تقول شيئاً ولا تعرف شيئاً، ولا تفعل شيئاً، ولا تملك شيئاً، وإن حياتك هذه لتقرب كثيراً من لا شيء.

بارولس: بعداً لك إنك لوغد.

المهرج: أولى بك أن تقولها أما وغد إنك وغد، أي أنك أمامي وغد، وهذه هي الحقيقة يا سيدي.

بارولس: حسبك، إنك لمهذار أحمق، وقد اكتشفتك.

المهرج: هل اكتشفتني في نفسك يا سيدي، أو هل علمت أن تكتشفني. إن البحث كان لك مغنماً، ولعلك مكتشف حمقاً كثيراً فيك، فيلهو الناس بك ويزداد بك الضحك في هذا العالم.

بارولس: أنت والله لوغد طيب، ناعم بغذاء حسن،^{٣٣} سيدتي إن مولاي سيسافر الليلة في مهمة خطيرة تستوجب رحيله، وهو لحقك العظيم، والحب الذي تقتضين مقر معترف، ولكنه مرجئه لظروف قاهرة، وسيتركز النعيم كله في هذه الفترة وتقطر المتعة خلالها، وتتقى طيلة هذه المهلة، وبسبب هذا التأخير الذي لا معدى عنه، حتى إذا حانت الساعة للقاء، استفاض الفرح وامتلأ الإناء، وبلغ السرور الخافقين.

هيلين: وماذا يبغي أيضاً؟

بارولس: أن تستأذني الملك في الحال، وتجعلي هذه العجلة من تلقاء نفسك، وثمره تفكيرك، معززة بأسبابه، وبما ترين من حسن المعذرة، التي تظهر معها حقيقة.

هيلين: وبماذا يأمر أيضاً.

بارولس: أن تنتظري بعد الحصول على الإذن ما يطلبه إليك.

هيلين: إنني منتظرة في كل شيء أوامره.

بارولس: سأبلغه ذلك.

(يخرج.)

هيلين: أرجو أن تأتي يا هذا.

(تخرج.)

المشهد الخامس

حجرة أخرى في القصر

(يدخل لافيه — وبرترام.)

لافيه: ولكني أرجوك يا مولاي ألا تعتقد أنه جندي.

برترام: بل إنه لكذلك يا مولاي، وقد ثبتت بالشواهد والأدلة بسالته.

لافيه: لقد جاءتك هذه الشواهد من كلامه هو وأقواله.

برترام: إلى جانب أدلة أخرى وشهادات صحيحة.

لافيه: إذن لم تكن شواهد دقيقة، لقد حسبت هذه القنبرة درسه.^{٣٤}

برترام: أوكد لك يا مولاي أنه على علم واسع، وأن شجاعته لا تقل عن علمه.

لافيه: لقد أخطأت إذن في حق حنكته، وتعديت على شجاعته، فأنا إذن مقترف خطيئة مُجْتَرِحٍ إثمًا، ما دمت لا أجد في نفسي نزوعًا إلى تكفير، ولا رغبة في ندامة، ها هو ذا قادم، فأرجوك أن تصالحنا، وعليّ أنا أن أتابع الصلح بالمودة.

(يدخل بارولس.)

بارولس: ستسير الأمور كما تريد يا سيدي.

لافيه: قل لي من يكون حائكه ...

بارولس: سيدي؟

لافيه: إنني أعرفه حق المعرفة، إنه عامل ماهر، وحائك بارع.

برترام: هل ذهبت إلى الملك.

بارولس: نعم.

برترام: وهل هي الليلة راحلة ...

بارولس: إذا شئت.

برترام: لقد كتبت رسائلتي، وحزمت أمتعتي، وأمرت بإعداد جياندا، واللييلة حين أملك العروس، أنتهي منها قبل أن أبدأ.

لافيه: إن المسافرين الأريب يستمع إليه في آخر العشاء، يكذب في ثلاثة أمثال ما يروييه، ويتكلم عن حقيقة معروفة ليغطي بها ألف عبارة تافهة فيجب ألا يُسمع إلا مرة وأن يُضرب ثلاث مرات، نجاك الله أيها القائد.

برترام: هل وقع جفاء بين مولاي وبينك يا سيدي؟

بارولس: لست أدري كيف استحققت أن أقع لديه في غير موقع الرضا.

لافيه: أنت الذي حاولت الوقوع بحذائك ومهمازك وكل شيء لديك، كالذي قفز في الحلوى، وأنتك لتفضل أن تخرج منها على أن تبرر بقاءك فيها.

برترام: لعلك وهمت فيه يا مولاي.

لافيه: وسأظل كذلك أبدًا وإن كنت قد أجبت طلبه إلى الملتقى يا مولاي، وصدقني ليس في هذه البندقية الخفيفة شيء، إن روح هذا الرجل هي ثيابه، فلا تركز إليه في الأمور الخطيرة، فقد اقتنيت هذه الحيوانات الأليفة وعرفت طباعها، وداعًا يا سيد، لقد تكلمت في حقك خيرًا مما استحققت أو مما ستستحق مني، ولكننا مضطرون أن نفعل الخير لنقاوم الشر.

(يخرج.)

بارولس: أقسم إنه لمولى تافه.

برترام: لا أظن ذلك.

بارولس: ألا تعرفه.

برترام: بلى، أعرفه حق المعرفة، وهو معروف على الأفواه بسمعة حسنة، ها هي ذي الرباط المقيد رجلي قادمة.

(تدخل هيلين.)

هيلين: لقد تكلمت يا سيدي كما أمرتني مع الملك واستأذنته فأذن في هذا السفر العاجل، ولكنه يريد أن يتحدث إليك حديثًا خاصًا.

برترام: سأمتثل لأمره، لا تعجبي يا هيلين لهذا المسلك الذي لا يناسب الظرف الحاضر، ولا يلائم عروسين في يوم زفاف، ولا يتفق وما تنتظرينه مني خاصة، لأنني لم أكن متأهبًا له ولا مستعدًا ولا مترقبًا، فلا عجب إذا رأيتني مرتبًا مضطربًا، وهو أمر يدفعني إلى التوسل إليك أن تبادري بالعودة إلى البيت لتفكري في سر توسلي إليك على هذا النحو وباعتث تضرعي، ولا تسأليني فإن ما لدي من الأسباب أقوى مما يبدو لك، ورحيلي ينطوي على أمر أعظم من أن ينكشف لعينيك وأجل من أن يترأى لك لأول وهلة، وأنت لا تعرفين عنه شيئًا، واحملي هذا إلى أمي (يعطيها رسالة) وسينقضي يومان قبل أن أراك، ولهذا أتركك لحكمة تصرفك.

هيلين: سيدي، لست واجدة ما أقول إلا أنني خادمتك المطيعة.

برترام: حسبك، حسبك، لا تزيدني.

هيلين: وسأظل أبحث كيف أخفقت كواكب زواجي في أن تتفق مع كواكب سعدي.

برترام: دعي عنك هذا، إنني في عجلة بالغة، وداعًا!، أسرعني إلى البيت.

هيلين: أستمحك معذرة يا سيدي.

برترام: ماذا تريدني أن تقولي؟

هيلين: إنني لست للنعمة التي أملكها مستحقة، ولا أجرؤ أن أقول إنها نعمتي، وإن كانت كذلك، ولكنني كاللص الخائف المتهيب أود أن أسرق ما هو شرعًا مالي، وأختلس ما هو في نظر القانون ملك يميني.

برترام: ما الذي تريدني؟

هيلين: شيئًا، يسيرًا، بل في الواقع لا شيء، ولست أقول لك يا مولاي ما أريد، إن الغرباء والأعداء يفترقون ولا يتبادلون القبلات.

برترام: أرجوك ألا تترثني، بل أسرعني إلى الخيل.

هيلين: لن أعصي لك أمرًا يا مولاي الكريم، أين رجالي الآخرون يا سيدي، الوداع.

(تخرج.)

برترام: اذهبي إلى البيت الذي لن أعود يومًا إليه، ما استطعت أن أمتشق حسامًا، وأسمع طبولًا، هيا بنا ... ولنهرب.

بارولس: شجاعة وثباتًا ...

(يخرجان.)

^١ أكبر الظن أن الأشراف الشباب قسمان أو «فريقان» فريق يريد الاشتراك في القتال مع فلورنسا، وفريق مع سيبينا، والخطاب هنا موجه إلى الجمع، وإن لم يشترك في الحوار خلال هذا المشهد غير شريفين وهما الشريف الأول ج ... وشقيقه الأصغر ب ...

^٢ أي سوف أخطر إلى المشي في أذيال الغواني والرضا بابتذالهن لي. والعبارة في الأصل مأخوذة عن الخيل، وهي في حرفيتها: «سأكون الحصان الأمامي في مركبة النساء»، وهو الحصان الأول في مقدمة

الخيول التي تجر المركبة الكبيرة.

^٣ اصطلاح أو عبارة مألوفة في الفروسية والمنازلة بالسيف، ومعناها أن نكتة الملك لم تصب إصابة نفاذة ولكنه كان فيها كالفارس الذي لا يجيد الضرب فإن ضربته لم تزد عن لمس درع خصمه.

^٤ المعنى، ألا تعتقد أن علاجك ممكن كالتغلب في الحكاية المشهورة عنه، يعد البرء عنبًا حامض.

^٥ الملك بيان ابن شارلمان كانت وفاته عام ٨١٠، والمعنى أنها تكفي لإخراجه من قبره، وأما الإشارة إلى شارلمان وصناعة القلم وفن البيان، فهي ترديد لما كان يُعرف عنه من محاولته في أخريات أيامه تعلم الكتابة.

^٦ أي ما هذه السرعة في حضورها، كأنها جاءت طائفة.

^٧ هو مانداراس الذي أحضر كريسيديا إلى ترويلاس، والمراد هنا هو أن لافيه أراد التنكيت فقال إنه يرضى أن يترك هيلين في خلوة مع الملك.

^٨ إشارة إلى ما ورد في التوراة عن سيرة دانيال بشأن الولدان الذين عُرفا في الصغر بالحكمة وفصل الخطاب، وعن القضاة الذين أخطأوا في الأحكام. وفيما تلا ذلك من الكلام شرح لهذا المعنى وبيان.

^٩ إشارة إلى البحر الأحمر وفرعون مصر من طارد موسى وكيف انشق البحر ليمر بقومه.

^{١٠} يقول أحد الشراح إنه من الصعب أن نصدق أن شكسبير كتب هذه العبارة أو من الصعب أن نصدقها فيها مع هذا الوصف العجيب لقصر فترة العلاج الكفيل بالشفاء، ويقول بعضهم إن شكسبير أخطأ هنا فظن أن ساعة الربان في الباخرة هي ساعة كاملة لأنها تتم دورتها كل نصف ساعة.

^{١١} إشارة إلى مثل يقول: «الإطعام خير من التعليم، أو أطعمني ولا تعلمني» أو ما إليه.

^{١٢} في الأصل «تب وتوم» وهما من أسماء العامة كزقزوق وظريفة عندنا، وكانت العادة قديمة أن يعطي الرجل خاتماً من الأسل إلى المرأة ليعيشا معاً في حياة أشبه بالزواج. ولكن ليس به في الحقيقة، وقد نبه رجال الدين في القرن الثالث عشر إلى هذه العادة المستهجنة، وأن النساء قد يُخدعن بالخاتم فيُسلَّمَنَّ للذين يخدعن به، والمعنى هنا أن هذا الشيء زهيد بخس.

^{١٣} في الأصل «الموريس لعيد مايو» وقد رأيت بعض المفسرين يقول: إن الموريس هو «المغربي» أو المراكشي، أي نوع من الرقص.

^{١٤} هكذا اعتاد رجال البلاط أن يتخاطبوا «مولاي وسيدي» عند الإجابة عن كل سؤال، والمهرج هنا يقلدهم تهكمًا بهم وسخرية من غفلتهم.

^{١٥} أي يحاول العلماء أن يقولوا: إن الحوادث التي ليس لها سبب طبيعي هي حوادث عادية مألوفة، ولم نعد نخاف من الخوارق ونردها إلى أسباب طبيعية، وكان أولى بنا أم نؤمن بها بدون بحث أو تحقيق في عللها. ولعله في قوله: «الحكماء» يشير إلى السير والتر رالي وأشياعه الملاحدة الذين ينكرون الخوارق والمعجزات. «والمتفلسفة» أدعياء الفلسفة وفي الأصل «الأشخاص المتفلسفون».

- ^{١٦} طبيبان مشهوران في القرون الماضية.
- ^{١٧} يلاحظ أن بارولس يؤمن على كل ما يقال ليوهم أنه يعرف كل شيء، كما سيبدو في الحوار التالي كله.
- ^{١٨} الظاهر أن هذا هو عنوان كتاب أو رسالة في موضوع المعجزات، والكلام على هذا النحو يتضمن سخرية منه ومن العلماء الذين ينحون في تحليلهم للخوارق والمعجزات هذا النحو.
- ^{١٩} «الدرفين» مشهور بكثرة القفز والوثق، وهو ما يبدو من بارولس في تأميناته على كلام الشيخ.
- ^{٢٠} تقول: إن «الحياء» يتحدث إليها، ويقول لها: إني أخشى من أن تقابلي بالرفض.
- ^{٢١} المعنى أنني الآن سأترك عبادة «ديانا» إلهة العذارى والتبتل ملتزمة حياة الأزواج، وقد قالت هيلين كلمتها هذه قبل أن تنهض لتطوف على الأشراف الشباب، إلى أن تنتهي عند برترام.
- ^{٢٢} أي ليست لديهم الرجولة وقوة الإحساس اللتان عند هؤلاء وأولئك.
- ^{٢٣} في الأصل — بغير معركة مميتة — أي لا بد من مبارزتك وقتلك جزاء لك على هذا الكلام المهيمن.
- ^{٢٤} شيش شباك، نافذة بشبكة يمكن النظر من خلال تقوبها — أي أنك مكشوف.
- ^{٢٥} العيار الذي يجب الآفاق يسأل الناس طعامًا.
- ^{٢٦} ليس لك حق شرعي من جهة مولدك وأصلك في اعتبارك سيدًا أصيلًا.
- ^{٢٧} أي أن الحرب لا تُقاس متاعبها وأهوالها بالزواج الذي لا سعادة فيه ولا رضا. إذا كان الزوج يكره زوجته. وفي تفسير آخر لكلمة بيت مظلم إن الحرب أهون من الجنون، إذ كانت العادة يومئذ أن يدفع المجنون في مكان مظلم.
- ^{٢٨} يشير إلى كرة التنس — التي تُصنع من الجلد وتُحشى بالشعر، والكرة الجيدة منها تثب من فوق الأرض الصلبة في حلبة اللعب فتُحدث صوتًا.
- ^{٢٩} هنا شيء من الجناس بين مقترن ومقرن، والمقرن هو المكبل بالأصفاد والسلاسل.
- ^{٣٠} من الصعب أن ننسب كلامًا كهذا لا يفهم المراد منه إلى شكسبير، ولكن كل هذا القول من المهرج يشير إلى اعتقاد الناس في ذلك العهد أن الموت أحسن من الحياة.
- ^{٣١} لعله يشير إلى الحديث الذي جرى من قبل بينهما عن الزواج، وإلى ما حدث بعد ذلك.
- ^{٣٢} كان رد المهرج على بارولس حين سأله ماذا تفعل مولاتك، أنه يود لو أنها «فعلت» كما يقول، وكلمة «فعلت» في الإنجليزية وهي did تشابه لفظًا مع كلمة dead أي «ميت» أي وددت لو أنها «ماتت».
- ^{٣٣} أي حسن التغذية، والباقي محذوف، وهو «ولكن سيء التربية».
- ^{٣٤} القنبرة طائفة غردة والدرسة باغمة لا تشدو، أي كنت أظنه لا شيء، فإذا هو على النقيض.

الفصل الثالث

المشهد الأول

(طبول — يدخل دوق فلورنسا والأميران الفرنسيان مع جمع من الجنود.)

الدوق: لقد سمعتم الآن تفصيل الأسباب الأساسية التي دعت إلى قيام هذه الحرب، واقتضت أحداثها الجسام إراقة غزير الدماء، واستثارة العطاش إليها والظماء.

الشريف الأول: إن هذه الأسباب يا مولاي من جانبكم شريفة مقدسة، ومن جانب عدوكم منكرة دنسة.

الدوق: ولهذا أنا لفي عجب بالغ من ابن عمنا ملك فرنسا كيف يصم أذنيه في أمر عادل كهذا عن سماع طلبنا المعونة، والاستجابة لنداء النجدة.

الشريف الأول: أيها المولى الكريم، لست أعرف الأسباب التي بنت عليها دولتنا خطتها، ولكني كرجل عادي لا خبرة له بالسياسة أحاول بالحدس الضعيف وحده إدراك اتجاهات المجلس وأوضاعه المستغلقة على الأفهام، كأوضاع الكواكب، وحركات الأجرام، ولهذا لا أجرؤ أن أقطع فيها برأي، إذ وجدتني أحياناً كثيرة مخطئاً في حدسي وتخميني كلما بدا لي أن أفعل ذلك.

الدوق: لتكن مشيئته.

الشريف: ولكني على يقين أن الشباب ممن هم على شاكلتنا، والذين أتخمتهم الدعة، وسئموا الإسراف على أنفسهم، سيهرعون إلى هنا انتجاعاً للدواء من الداء.

الدوق: مرحباً بهم يوم يجيئون، وسينالون كل ما نستطيع أن نحبوهم به من شرف وتمجيد، إنكم لتعرفون مكانكم حق المعرفة، فإن خلت أماكن أفضل وأعز، فمن أجلكم تخلو لثماً بكم وتعتز، إلى الميدان غداً.

(يخرج — طبول.)

المشهد الثاني

حجرة في قصر الكونتيسة

(تدخل الكونتيسة والمهرج.)

الكونتيسة: لقد جرى كل شيء كما كنت أريد أن يجري، إلا أنه لم يأتِ معها.

المهرج: يميناً يا سيدتي إنني أحسب مولاي الفتى في حزن شديد.

الكونتيسة: أرجو أن تخبرني عن الذي جعلك تظن هذا الظن.

المهرج: إنه لينظر إلى حذائه ويغني، ويصلح من الطرف الأعلى لهذا الحذاء ويغني، ويسأل أسئلة ويغني، وينظف أسنانه ويغني، وأعرف رجلاً هذه صفته باع قصراً منيفاً بأبخس الأثمان.

الكونتيسة: دعني أرى ماذا يقول في كتابه ومتى ينتوي مآباً.

المهرج: لم أعد أطيق الوصيفات، منذ كنت في البلاط، إن سمكنا وحيثاننا ونساءنا في الريف، يختلفن كل الاختلاف عن جوارى البلاط وطعامه، إن مخ «كيوبيدي» انشرخ وانفدخ، فبدأت أحب كما يحب العجوز المال، ولا معدة له.^١

الكونتيسة: ماذا أرى هنا؟

المهرج: حتى هذا ترينه فيه.

(يخرج.)

(الكونتيسة تقرأ الكتاب.)

الكونتيسة:

لقد أرسلت إليك كَنَّة، شفت الملك وأضاعنتي، لقد تزوجتها ولكني لم أبين بها، وأقسمت ألا أفعل أبداً، وستسمعين أنني هربت، فاعلمي النبأ قبل أن تتلقيه، فإذا كان لهذا العالم كتابة من العرض، فسأبتعد فيه إلى أقصى حد، وتقبلي احترامي ... ولدك المنكود ...

ليس هذا عملاً صالحاً أيها الفتى الجموح المطلق العنان، أتخسر رضا ملك كريم وتستهدف برترام لجام غضبه، لازدراء فتاة بلغت من الفضيلة حدًّا، لا يزدريه رب جاه ولا صاحب سلطان.^٢

(يدخل المهرج.)

المهرج: مولاتي، نبأ خطير، بين جنديين ومولاتي الصغيرة.

الكونتيسة: ما الذي جرى؟

المهرج: لا تراعي ... إن في النبأ بعض ما يرضي، نعم بعض ما يرضي، إن ابنك لن يقتل بالسرعة التي كنت أعتقد.

الكونتيسة: ولماذا يقتل؟

المهرج: هذا ما أقوله أنا يا مولاتي إذا هو هرب، وقد سمعت عن هربه، إن الخطر كل الخطر في البقاء، ففيه يضيع الرجال وإن كانوا يأتون بالأطفال، ها هم أولاء قادمون ليزيدوك علمًا بما جرى، أما أنا فلم أسمع إلا بهرب فتاك.

(يخرج.)

(تدخل هيلين والشريفان.)

الشريف الثاني: سلامًا أيتها السيدة الكريمة.

هيلين: مولاتي، إن مولاي ذهب، ولن يعود أبدًا.

الشريف الأول: لا تقولي هذا.

الكونتيسة: أرجوكم أيها السيدان صبرًا علي ورفقًا بي، لقد تعاقب على نفسي من الأفراح والأفراح ما جعلني لأول مطالعها وبوادرها أحس ضعف المرأة وخورها، أرجوكم أن تخبراني أين ولدي ...

الشريف الأول: لقد ذهب لخدم دوق فلورنسا وقد التقينا به هناك، لأننا جننا، وسنعود إليها بعد تأدية مهمة لنا في البلاط.

هيلين: انظري يا مولاتي إلى كتابه، إنه جواز سائل،^٣ فهو يقول لي فيه: «إذا استطعت أن تظفري بالخاتم الذي في إصبعي والذي لن يخرج منه إلى الأبد، وإذا أمكنك أن تقدمي إليّ ولدًا من أحشائك

وأصلاي، أكون أنا له الوالد، وهو لي الولد، فلتُسَمِّنِي يومئذ لك بعلاً، وإلا فلا إلى الأبد ... يا لها من كلمات مروعة.

الكونتيسة: هل أنتما اللذان جئتما بهذا الكتاب أيها السيدان ...

الشريف الأول: أي نعم يا سيدتي، ونحن لما حوى آسفان لما نقلناه.

الكونتيسة: أرجوك أيتها السيدة أن تخففي من حزنك، وتُسَرِّي قليلاً عنك، لأنك إذا احتكرت الأحزان كلها لنفسك، تركتني منها خلية، بغير نصيب، لقد كان لي ابنًا، ولكني ماحية اسمه من دمي، وأنت وحدك كل ولدي ... أتقولان إنه ذهب إلى فلورنسا؟

الشريف الأول: أجل يا سيدتي.

الكونتيسة: ليكون جندياً؟

الشريف الأول: هذا هو مقصده النبيل، وتقي أن الدوق سيخلع عليه كل الشرف الذي يستحقه.

الكونتيسة: أعائدان إلى هناك؟

الشريف الثاني: نعم يا سيدتي على جناح السرعة.

هيلين (تقرأ): «لن يكون لي بفرنسا شأن، ما بقي لي فيها زوج»، إنه لقول أليم ...

الكونتيسة: أوجدت هذا أيضًا في الكتاب؟

هيلين: نعم يا مولاتي.

الشريف الثاني: لعلها جراحة من يده، على ما لم يقره قلبه لحسن الحظ.

الكونتيسة: لا شأن له بفرنسا، ما بقي له فيها زوج ... «ليس له هنا من ولي ولا عزيز غيرها، إنها لخليقة بمولى في خدمته عشرون فتى من أمثاله شراسة، يقولون لها في كل ساعة «مولاتي» ومن كان معه؟

الشريف الثاني: خادم واحد وسيد عرفته في وقت ما.

الكونتيسة: أليس هو بارولس؟

الشريف الأول: بلى يا سيدتي الكريمة، إنه هو.

الكونتيسة: مخلوق فاسد، امتلأت بالشر نفسه، أفسد بالتحريض طهارة ابني وأخلاقه الكريمة.

الشريف الأول: أجل أيتها السيدة الكريمة، إن لهذا المخلوق أسوأ الأثر في نفس ولدك الذي يقدره كثيرًا ويحسن الرأي فيه.

الكونتيسة: مرحبًا بكما أيها السيدان، وأرجو أن تقولوا لولدي حين تريانه: إن سيفه لن يكسب الشرف الذي خسره، وسأرجو إليكما أن تحملاً إليه مني كتابًا.

الشريف الأول: نحن في خدمتك يا سيدتي في هذا وفي كل ما تأمرين به من الشؤون الهامة.

الكونتيسة: أستغفر الله، ولن تكونا في خدمتي إلا إذا أدنتما لي بأن أقوم بخدمة أؤديها لكما من واجب الوفادة والتكريم.

(تخرج هي والشريفان.)

هيلين: «لن يكون لي بفرنسا شأن، ما بقي لي فيها زوج...»، لن يكون لك في فرنسا يا روسيون زوجة، لن يكون لك أحد يا روسيون في فرنسا، وإذن سيعود إليك كل ما كان لك فيها، وأها لك يا مولاي، أنا التي تطردك من وطنك، وتعرض طراءة بدنك لأحداث الحرب وأهوالها، وهي لا تبقي ولا تنز؟ أنا التي تبعدك عن البلاط ومباهجه، حيث الغيد يثأرنك بأعينهن والحسان يرسلن إليك سهام لواحظهن، لتكون هدفًا لقذائف النيران، المنبعثة وسط ذوائب الدخان؟ أيتها المقاذيف الرصاصية التي تمرق في مثل سرعة الشهب، انطلقى غير مسددة، وانبعثى غير مصوبة ولا مؤكدة، ومزقي الفضاء ودوي في أرجائه مخترقة، ولا تمسي مولاي بسوء، وكل من يسدد الرمية إليه، أنا غريمته، وكل من يرسل الطلقة إلى صدره، أنا ملاحقته، ولئن لم أقتله، كنت السبب في قتله، وعلة منيته، إني لأوثر أن ألقى الأسد وهو يزأر من فرط الجوع، وأن تتناهى مجتمعة كل ما في العالم من مصائب، وما في الخليقة من خطوب ... كلا، يا روسيون، عد إلى وطنك، من حيث لا تصيب من الشرف بتعرضك للخطر غير جرح وندبة، ولكن قد يكون الهلاك نصيبك والخسارة، لأذهب أنا، ما دام مقامي هنا، هو الذي يحول دون رجعاك، أفأقيم هنا لتظل أنت بعيدًا، وعن وطنك مصروفًا مذودًا؟ كلا، ثم كلا! ولو كان نسيم الجنة على هذا البيت مطلقًا هابًا، والملائكة فيه حاشدين، سأذهب لعل نبأ فراري ينزل على سمعك مواسيًا، ويطلع أذنك معزيًا أيها الليل أقبل، لتختم النهار، لأنى مع الظلام المسترق، سأسترق الخطى هاربة، أنا اللصة المسكينة ...

(تخرج.)

المشهد الثالث

أمام قصر الدوق

(طبول — يدخل دوق فلورنسا وبرترام وضباط وجنود — وبارولس وغيرهم.)

الدوق: أنت قائد فرساننا، وإن لنا لأملاً كبيراً فيك، وواضعون أصدق حبنا وثقتنا بمستقبلك الباهر، وغدك المجيد.

برترام: مولاي. إنه لعبء فادح تنوء به قواي، ولكني سأجتهد في حمله، لمرضاتك إلى أبعد حد.

الدوق: إذن انطلق، وليخفق التوفيق فوق هامتك، وليكن الحظ السعيد في خدمتك.

برترام: أي إله الحرب، إنني من اليوم سالكٌ نفسي في أجنالك فحقق أمني، واستجب لما في خاطري، حتى أثبت أنني لطبولك محب، وللحب كاره.

(يخرجون.)

المشهد الرابع

حجرة في قصر الكونتيسة

(تدخل الكونتيسة ورئيس الخدم.)

الكونتيسة: وا حزني! هاك كتابها، ألم يكن في إمكانك أن تعرف من إرسالها لي خطاباً ما هي فاعلته قبل أن تقدم فعلاً عليه؟ اقرأ كتابها مرة أخرى.

رئيس الخدم (يتلو الكتاب): «إنني ذاهبة لأحج مزار سان جاك؛ بعد أن أزرى بحبي الطموح وأستكر، وسأسعى إليه أطمأ الأرض حافية القدمين، معاهدة الله على التكفير عن خطاياي، ضارعة إليه أن يرد مولاي العزيز، وولدك المحبوب، من حومة الحرب الدامية إلى وطنه بسلام وعافية، قانعة من بعيد بتقديس اسمه، مخلصه الدعاء، صادقة النداء، سائلة إياه الصفح عما كبדתه من متاعب، وجشمته من مكاره ونوائب، فأنا زوجه المزدراة، قد فعلت ما فعلت جونو^٥ ببعليها العظيم، إذ نزعته من صحابه في البلاط وخطائه، وأسلمته للمقام بين خصومه وأعدائه، في مضارب القتال وشدة بلائه، حيث المنايا رصد للشجعان، وهو أكرم وأجل من أن يستهدف لها ويكون لي، وأنا من الموت مفتديته، ولمقدم المنون ملاقيته، لينطلق هو بالحياة ناجياً...».

الكونتيسة: بالله ما أشد اللذعات في أرفق الكلمات، وما أحد السنان في لغة الحنان، أي رينالدو، ما عهدتك يوماً أشد افتقاراً إلى الحكمة منك اليوم، إذ تركتها تفر، ولو أنني تحدثت إليها، لاستطعت أن أنهيها

عن نيتها، ولكنها حالت دون ذلك بفرارها.

رئيس الخدم: مغفرة يا مولاتي، لو أنني قدمت إليك هذا الكتاب في الليلة البارحة لكان من الجائز اللحاق بها، ولكنها تقول إن تعقبها ذاهب سدى.

الكونتيسة: أي الملائكة مبارك هذا الزواج الغادر! إنه لن يحالفه التوفيق ما لم تنجّه دعواتها الذاهبة إلى السماء مسموعة، صاعدة إلى الله مقبولة، من غضب العدالة الإلهية، اكتب يا رينالدو، اكتب إلى هذا الزوج الذي يستحق زوجته، ودع كل كلمة في مثل زنة فضلها، الذي استخف به، وصِف له بدقة حزني الشديد، وإن كان به مستهيناً، وأوفد إليه أنسب الرسل، لعله حين يسمع برحيلها عائداً إلينا، وإني لأرجو حين تعلم بما جرى أن تبادر إلى الأوبة، يحدها حبها الطاهر، فلست أدري أيهما أعز عندي وأعلى قدرًا، وأنا العاجزة عن التفرقة، هلم اكفل للرسول حاجته، إن قلبي لمحزون، وسني واهنة متقدمة، والحزن يطلب دمعاً، والأسى يقتضي بالكلام متنفساً.

(يخرجان.)

المشهد الخامس

خارج أسوار فلورنسا

(صوت طبول من بعيد.)

(تدخل أرملة عجوز من نساء فلورنسا وابنتها ديانا وفيلونتا وماريانا وغيرهن من أهل المدينة.)^٦

الأرملة: تعالين، حتى لا نُحرم من المشاهدة إذا هم اقتربوا من المدينة.

ديانا: يقولون إن الكونت الفرنسي قام بعمل حربي جليل.

الأرملة: وإنه أسر القائد الأكبر وبيده ذبح شقيق الدوق ... لقد ذهب جهدنا سدى فما هم أولاء يتخذون طريقاً آخر غير هذا الطريق، ألا تسمعن دق الطبول من مكان بعيد.

ماريانا: لنعد من حيث أتينا قانعات برواية الخبر، وأنت يا ديانا احذري هذا الأمير الفرنسي، وأمسكي عليك حفاظك، إن شرف الفتاة في نقاء اسمها، وحسن سمعتها، وليس ثمة شيء أشرف من العفاف، ولا أعلى من الطهر والنقاء.

الأرملة: لقد قلت لجارتنا كيف راح سيد من رفاقه يتعلق بأذيالك.

ماريانا: أعرف هذا الوغد لعنة الله عليه، إنه يدعى بارولس، وهو ضابط قذر، دأب على إغواء الأمير الشاب والوسواس في سمعه، فاحذريهما يا ديانا، ولا تستمعي إلى وعودهما وكيدهما وأقسامهما ومرادواتهما، وسائر ما تصطنعه الشهوات من وسائل وأدوات، لأنها وعود كاذبة، وأماني باطلة، فكم من فتاة انخدعت بها، وكان الشقاء جزاءها، وراحت عبرة لمن تعتبر، وشر ما في الأمر أن الشقاء وسوء المغبة الرهيب الذي يؤدي إليه فقد العذارى شرفهن لا يحول برغم هذا بينهن وبين تكرار المأساة، بل إنهن ليقعن في الشراك التي تنصب لهن، وما هذه الحبال إلا أشبه بالفروع والأفنان التي تجتذب الأطيوار، وتحتلبها في القنيسة، وأرجو ألا أحتاج إلى إسداء نصيحة أخرى إليك، بل أمني أن يصونك عفاك، فتظلي كما أنت، ولئن لم يبدُ للعين خطر، فقد تفقد العذراء الحياء، ويذهب عنها الخفر.

ديانا: لن أدعك تخافين علي، فاطمئني.

(تدخل هيلين في زي الحجاج.)

الأرملة: أرجو ذلك، انظرن، ها هي ذي حاجة قادمة، إنني أعرف أنها ستقيم في بيتي، إن هؤلاء الحاجات ينبه بعضهن بعضاً، واحدة ترسل الأخرى، سأسألها ... يا حاجة سلاماً لك، إلى أين؟

هيلين: إلى مزار القديس جاك الأكبر، نبئني بالله عليك أين ينزل الحجيج.

الأرملة: في سان فرنسيس هنا بجوار باب المدينة.

هيلين: أهذا هو الطريق إليه؟

الأرملة: نعم هو وأيم الله (تسمع مواقع أقدام الجنود من بعيد ...) ألا تسمعن. إنهم قادمون من هذا الطريق، هلا انتظرت يا حاجة ريثما يأتي الجنود فأسير بك إلى حيث تأوين، لأنني أعرف ربة المأوى، فهي صورة مني.

هيلين: أأنت هي؟

الأرملة: إذا رضيت بذلك يا حاجة.

هيلين: شكراً لك، وسأنتظر حتى يتسع لك الوقت.

الأرملة: أظنك قادمة من فرنسا؟

هيلين: منها أتيت.

الأرملة: ستشهدين هنا فتى من أبناء بلدك أتى أعمالاً مجيدة.

هيلين: وما اسمه إذا سمحت ...

الأرملة: الكونت روسيون، أتعرفين أحدًا بهذا الاسم ...

هيلين: لا أعرفه إلا بالسماح، فقد سمعت أطيب الثناء عليه، ولكني لا أعرف وجهه.

ديانا: مهما يكن من أمره، وهو يُعد هنا من أظرف الناس، ويقال إنه فرّ من فرنسا لأن الملك أرغمه على الزواج بمن لا يحب ... أتظنين الأمر كذلك؟

هيلين: هذه هي الحقيقة بعينها، إنني أعرف زوجه.

ديانا: إن في خدمة الكونت سيدًا يروي السوء عنها.

هيلين: وما اسمه؟

ديانا: مسيو بارولس.

هيلين: آه ... إنني متفقة معه، فهي من حيث الفضل، وإذا قورنت بقدر الكونت العظيم وشأنه، أقل كثيرًا من أن يذكر اسمها بجانبه، وكل ما فيها من خير حرصها على عفافها، فلم أسمع عنها من هذه الناحية شائبة.

ديانا: وا أسفا لهذه السيدة المسكينة، إنه لرباط أليم أن تكون زوجًا لسيد يكرهها.

الأرملة: إنني أراها مخلوقة طيبة فاضلة، ومهما تكن فإن فؤادها لمحزون بلا ريب، وفي شجن بالغ، إن هذه الشابة تستطيع أن تنتقم لها إذا شاءت.

هيلين: ماذا تعنين بقولك هذا؟ ... أترى الكونت الغزل يراودها لمقصد غير شريف؟

الأرملة: نعم، إنه ليعرض عليها كل ما في مكنته أن يعرض، ليفسد عليها شرف العذراء، ولكنها تتقيه، وعلى حذر منه، منتبهة إلى الذود عن شرفها.

(طبول وأعلام، يدخل الكونت روسيون وبارولس وكتيبة من جيش فلورنسا.)

ماريانا: حمتها الآلهة وعادتها منه.

الأرملة: ها هم أولاء قد أتوا، هذا أنطونيو أكبر أبناء الدوق، وهذا إسكالوس.

هيلين: وأيهم الفرنسي؟

ديانا: ذاك صاحب الريشة، إنه لأشجع الشجعان، ليته كان لزوجته محباً، ولو وفى لكان أحسن البعول، أليس هو بالسيد الجميل؟

هيلين: إنه يروقني كثيراً.

ديانا: ولكن من دواعي الأسف أنه ليس مخلصاً، وها هو ذا الوغد الذي يقوده إلى تلك الأماكن، لو أنني كنت زوجه لوضعت السم لهذا المجرم الشرير.

هيلين: أيهم هو؟

ديانا: ذلك القرد المققع الكثير الثياب، لماذا يبدو مكتئباً؟

هيلين: لعله جرح في المعركة.

بارولس: أنفقد طبولنا! حسن.

ماريانا: إنه غضبان مغيظ من شيء ما، انظرون إنه قد لمحنا.

الأرملة: لعنة الله عليك.

ماريانا: وعلى تحيتك أيها الديوث.

(ينصرف برترام وبارولس والضباط والجنود.)

الأرملة: لقد مر الجنود فهلمي أيتها الحاجة، أذهب بك إلى حيث تنزلين، ففي بيتي الساعة من طلاب التوبة والتكفير أربعة أو خمسة من الحجيج إلى مزار سان جاك.

هيلين: أشكرك بكل خضوع، فهلا تكرمت يا ربة الدار وهذه العذراء الرقيقة بقبول تناول الطعام معنا الليلة وستكون النفقة والشكر عليّ، وجزاء آخر سأهب هذه العذراء بعض وصفات طبية، خليقة بالذِّكر.

الأرملة وماريانا: نتقبل هذه المكرمة شاكرين.

(ينصرفن.)

المشهد السادس

(يدخل الكونت روسيون والشريفان الفرنسيان.)

الشريف الثاني: إي والله يا مولاي الكريم جربه ودعه يمضي في هواه.

الشريف الأول: وإذا لم تجده يا مولاي مخلوقًا لا قيمة له ولا قدر، فأسقطني من عينيك، ودع عنك احترامي.

الشريف الثاني: وحياتي يا مولاي إنه «فقاعة».

برترام: هل تظنان أنني كنت مخدوعًا فيه.

الشريف الثاني: صدقني يا مولاي إنه في اعتقادي، بعد معرفتي الشخصية به، وبدون حقد أو موجدة في نفسي عليه، كأنه أحد أقاربي، جبان بادي الجبانة، كذاب لا حدود لكذبه، حنَّاث في كل ساعة بأيمانه، نكَّاث في كل لحظة بوعوده، لا سجية فيه أن تقبله في خدمتك.

الشريف الأول: يخلق بك أن تعرفه على حقيقته، لئلا تسكن إلى فضل ليس له منه حظ، فيخذلك في موطن جلل، أو أمر يستوجب خطره البالغ الثقة والاطمئنان.

برترام: وددت لو أنني عرفت في أي أمر خاص به أجربه.

الشريف الأول: ليس ثمة سبيل إلى تجربته أفضل من أن تكلفه أن يحمل الطبلية في القتال،^٧ كما سمعته يتحدث عن ثقة بأنه لا يتردد في حملها.

الشريف الثاني: وسأفاجئه أنا وجماعة من الجنود الفلورنسيين، ممَّن أثق بأنه لا يميز بينهم وبين الأعداء، فنشُدُّ وثاقه، ونعصب عينيه، حتى ليذهب الظن به إلى أنه محمول إلى مضاربهم، على حين نأتي نحن به إلى خيامنا، وما عليك يا مولاي إلا أن تكون حاضر أمرنا، فإذا لم تشهده عندئذٍ في سبيل النجاة بحياته، ودافع الخوف الخسيس، يعرض من تلقاء نفسه الغدر بك، وإفشاء كل ما في جعبته من الأنباء عنك، وحلف الأيمان المغلظة على صدق قوله، إنه إن لم يكن صادقًا في قوله غضب الله عليه، فلا تترك بعد اليوم إلى رأيي ولا تثق بحكمي وتقديري.

الشريف الأول: حبًّا في الضحك، ورغبة في التسلية، دعه يُحضر طبلته، ما دام هو القائل إنه البارِع الحاذق في حملها، لترى يا مولاي مبلغ براعته في ذلك، ومدى مقدرته، وتتبين إلى أي حد ستدوب هذه القطعة من المعدن المزيف، فإذا لم تضربه حينئذٍ ضربًا مبرحًا، فلا شيء بعدئذٍ ينتزع منك ميلك لهذا الإنسان.

(يدخل بارولس.)

الشريف الثاني: حبًا في الضحك، ورغبة في الفكاهة، لا تحُل دون شرف مقصده، دعه يستنفذ طبلته، مهما يكن الأمر.

برترام: كيف الحال الآن يا سيد ... إن هذه الطبله تحز في جسدك، وتثقل على صدرك.

الشريف الأول: إنها كالجدي، فدعها، إن هي إلا طبله.

بارولس: أتقول إن هي إلا طبله، هي طبله نعم ذهبت خسارًا، وجلبت عارًا، لقد كانت القيادة بارعة حقًا في الهجوم بخيلنا على جناحيننا، وتمزيق صفوف جنودنا بأيدينا.

الشريف الأول: لا ملامه على القيادة ولا معاب، لقد كانت نكبة من نكبات الحرب يعجز قيصر نفسه عن منعها، لو أنه كان في مركز القائد وموضعه.

برترام: لا يمكن أن نتهم فوزنا، ونعيب نصرنا، نعم لقد مسنا بعض الشين من فقداننا هذه الطبله، ولكن لا سبيل إلى استردادها.

بارولس: لقد كان من الجائز أن نستردها.

برترام: كان من الجائز، ولكن لا سبيل إليه الآن.

بارولس: لا بد أن تُسترد، ولولا أن حسن البلاء قلما يُنسب إلى صاحبه ومؤتيه، لاسترددت هذه الطبله أو غيرها، وإن قضيت في هذه السبل وتخطفتني الردى.

برترام: هلم إذن، إذا كانت في نفسك يا سيد رغبة، وإذا كنت ترى أن خبرتك بفنون القتال كفيلة برد هذه الشارة الرائعة من شارات الشرف إلى مكانها، هلم تقدم عظيمًا فحاول استعادتها، ولك علي أن أشهد لك بحسن البلاء، وعلو المكارم، وجميل الأثر، فإذا مضيت في هذا الأمر موفقًا، فسوف ينوه الدوق بك، ويشيد بذكرها، ويزيدك من فضله، قدر ما يليق بعظمتك، ويناسب مقامك، ويجزي كل ذرة من قدرك.

بارولس: قسمًا بيد جندي إنني لفاعل.

برترام: ولكن لا ينبغي أن تنام الآن عنها.

بارولس: سأحاولها في هذا المساء، أما الساعة فسأتدبر الأمر وأتروى فيه، وأنادي إلى شجاعتني وأنا مطمئن الواثق وأعد العدة للردى، وأوطن النفس على لقائه، وعند منتصف الليل ترقب أنباء عني وانتظر أخبارًا.

برترام: هل أجرؤ على إبلاغ سمو الدوق أنك معترزم المضي في هذا الأمر؟

بارولس: لا أعرف يا مولاي كيف سيوافيني النجاح، ولكنني على المحاولة مُقسِم، وببذل الجهد مرتبط.

برترام: أعرف أنك باسل، وبمدى جنديتك شاهد ... إلى الملتقى.

بارولس: لا أحب الإكثار من القول، ولا أنا في الكلام الكثير راغب.

(يخرج.)

الشريف الثاني: لا يحب كثرة الكلام إلا كما يحب السمك الماء، أليس هذا المخلوق يا مولاي عجيبيًا، في هذا الاطمئنان الذي يبديه إلى إتيان عمل كهذا، وهو يعلم أنه أمر هيهات أن يتم؟ أليس عجيبيًا منه أن يلعن نفسه ليفعله، وكان خيرًا له أن يكون ملعونًا، من أن يفعله.

الشريف الأول: إنك لا تعرفه يا مولاي كما نعرفه، إنه بلا شك لا يفتأ يتسلل إلى قلب إنسانٍ ما ويسترق الخطى إلى رضاه وحظوته، ويظل أليماً متجنباً كثيراً من الأشياء التي تكشفه، متحامياً جهده ما يفضح أمره، ولكنك حين تكشفه، تملك بعدئذ أن تقضحه.

برترام: ما الذي يجعلك تظن أنه لن يقدر على شيء مما يتطوع لإتيانه، ويتقدم بنفسه إلى إنجازهِ بكل ما في إمكانه؟

الشريف الثاني: ليس هو على شيء في هذا العالم بقادر، ولكنه عائد بأكذوبة يختلقها وشفاعة يبتدعها، ويلقي إليك بأكذوبتين أو ثلاث مجتملات أو مرجحات ولكننا قد أجهدناه أو كدنا، وسترى الليلة سقطته، وهو في الحق ليس باحترامك جديرًا.

الشريف الأول: سناعب لك هذا الثعلب قليلاً قبل أن تسلخ جلده، فقد استراب به من قبلنا الشريف لافيه الشيخ، فما زال به حتى كشف ستره، وإنك لمنبئ برأيك فيه، حين تشهدده الليلة بالذات.

الشريف الثاني: إنني ذاهب لأعد الحبال له، وإنه لمحتبل.

برترام: وسيدُهب أخوك معي.

الشريف الأول: كما تريد يا مولاي، إنني تارككما.

(يخرج.)

برترام: والآن، أذهب بك إلى البيت وأريك الفتاة التي تحدثت إليك عنها.

الشريف الثاني: ولكنك تقول إنها عفة.

برترام: هذه هي المصيبة كلها، لقد كلمتها مرة واحدة فوجدتها باردة أعجب البرودة، ولكني بعثت إليها، مع هذا المأفون الذي نريد الإيقاع به، بهدايا وكتب، فردتها ولم تتقبلها، هذا كل ما فعلته، إنها لحسناء، ألا تأتي لنراها؟

الشريف الثاني: من كل قلبي يا مولاي.

(يخرجان.)

المشهد السابع

حجرة في منزل الأرملة

(تدخل هيلين والأرملة.)

هيلين: إذا كنت في ريب مني، ولا تصدقين أنني هي، فلست أدري كيف أزيدك يقينًا، إلا إذا فقدت الأساس الذي أبني عليه عملي.

الأرملة: لئن كانت حياتي في المجتمع متداعية، فقد كنت كريمة المنبت، طيبة الأعراق، لا أعرف من هذه الأمور شيئًا، فلست أرضى بتعريض سمعتي لفعلة سوءى، ولا أقبل عملاً مشينًا.

هيلين: وأنا لا أَرْضاه لك ولا أرجوه، ولكني إنما أطلب إليك أن تتقي أن الكونت هو زوجي، وكل ما طلبت إليك أن تقسمي على كتمانهِ صحيح بجملة وتفاصيله، ولن تأثمِي إذا أنت وهبتي العون الكريم الذي سألتك إياه.

الأرملة: لا بد أن أصدقك بعد أن ثبت لي أنك ذات ثراء عظيم.

هيلين: خذي هذا الكيس المليء ذهبًا، ودعيني أشتري معونتك الصادقة به، وسأزيدك أجرًا وأضاعفه لك، إذا وجدتُها لديك، إن الكونت يغازل ابنتك، ويضرب حصاره الدفين حول حسنِها، ويعتزم الظفر بها، فدعِها تظهر الرضا، وسنشير عليها بما ينبغي أن تفعله، وهو في لهفته، وحرارة شهوته، لن يرضن عليها بشيء تطلبه، إنه يضع في إصبعه خاتمًا موروثًا من بيته كابرًا عن كابر، منذ بضعة أجيال، حين كان جده الأول يلبسه، وهو بهذا الخاتم لمعتز، وعليه حريص، ولكنه من سعيِر شهوته، لن يأبى النزول عنه، لشراء طلبته، وإن ندم عليه بعد ذلك.

الأرملة: الآن فهمت غرضك.

هيلين: وعرفت أنه حلال مشروع، فكل ما هو مطلوب أن تطلب ابنتك هذا الخاتم منه قبل أن تتظاهر له بالرضا، وتضرب له موعدًا للقاء، وقصارى القول دعيني أحل محلها، وهي غائبة طاهرة، وسأضيف إلى ما قد دفعت ثلاثة آلاف دينار لتزويجها وتجهيزها.

الأرملة: وأنا موافقة، فاشرحي لابنتي كيف تسلك، وبَيّني لها كيف السبيل، حتى يتم المطلوب في المكان المعين، والموعد المضروب، تحقيقًا لهذه الخدعة المشروعة، والحيلة التي يجانبها الإثم، إنه يأتي كل ليلة بمختلف الموسيقى والألحان، وينشدها الأغاني ويمنيها الأمانى، ليراودها عن عافها، ولا نجد شيئًا يرده عن دارنا، لأنه المُلح الدعوب، كأن في هذا الأمر حياته.

هيلين: لنحاول الليلة إذن حيلتنا، ولننفذ خطتنا، فإن أفلحنا فذلك شر يراد به خير، وحلال يراد به حلال، كلاهما لا إثم فيه، وإن ظل الواقع أثيمًا، فلنمضِ فيه.

(تخرجان.)

^١ أي لا رغبة لديه ولا شهوة حتى ينفق المال في إشباعها وإشارته إلى «مخ كيوبيد» مع نسبة كيوبيد إليه في قوله «كيوبيدي» معناها أن إله حبه بدأ يضطرب مخه، ويغريه بالحب، وقد عبر هنا عن «إيزابل» أي الخادم أو الجارية «بالوصيفات».

^٢ الخطاب هنا موجه منها إلى ابنها، فهي ترى هذا السلوك منه حمقًا، إذ كيف يتعرض لغضب الملك، لمجرد احتقاره فتاة لا تستحق الاحتقار، لفضلها المتناهي الذي يجعل الملوك ينظرون إليها بعين الإكبار.

^٣ هو جواز تعطيهِ البلدية للمتسولين لكي تجيز لهم به طلب الصدقات، وتعين لهم الأحياء التي تسمح لهم بالتسول فيها والتنقل من ناحية إلى أخرى، والمعنى ظاهر، فهي تشبّه الكتاب من شدة حزنها بهذا الجواز الذي لا يعطى إلا للسائلين والمُشرّدين.

^٤ ضريح مشهور في بلدة تدعى كومبو ستلا في إسبانيا، ولا يعرف أحد ضريحًا كهذا في إيطاليا حيث تقع حوادث الرواية، وسواء أكانت هيلين قد اعتزمت حقًا أن تحج إلى سنتياجو أم لا فإنها ذهبت أولًا إلى فلورنسا لغرض آخر.

^٥ زوج هرقل التي أرهقته وعذبتة كثيرًا.

^٦ سيلاحظ القارئ أن بين الأشخاص هنا فتاة تُدعى «فيولنتا» ولكن ليس لها في المشهد دور ما، والظاهر أن شكسبير كان في بدء الأمر يريد أن يسمي ابنة الأرملة «فيولنتا» ولكنه عدل فسمّاها «ديانا».

^٧ في كل جماعة من الجنود، كَسَرِيّة أو كَتِيبة، عَلم وطبلة، وخسارة أحدهما في المعركة عار شديد.

الفصل الرابع

المشهد الأول

في خارج معسكر الفلورنسيين

(يدخل أحد الشريفين الفرنسيين مع خمسة جنود أو ستة بمثابة «كمين».)

الشريف الثاني: ليس أمامه طريق يسلكه غير هذا السياج، فإذا أقبل، فانقضوا عليه، وبادروه بلسان مخيف، ولغة مُنكرة، لا تفهمون منها شيئاً، فذلك أمر لا يهم، إذ لا ينبغي أن نتراءى كأننا نعرفه أو نفهمه، ما لم ينبر أحد فيكون ترجماناً بيننا وبينه.

جندي: يا حضرة الضابط، لأكن أنا الترجمان.

الشريف الثاني: أليست بينك وبينه معرفة، هل يعرف صوتك؟

جندي: كلا، يا سيدي، أؤكد لك.

الشريف الثاني: ولكن ما هي الرطانة التي ستكلمنا بها؟

جندي: عين التي ستكلمونني بها.

الشريف الثاني: يجب أن يحسبنا عصابة من الغرباء، في خدمة الأعداء، وهو يعرف قدرًا قليلًا من لغات الأقاليم المجاورة كلها، فليتحدث كل واحد منا باللسان الذي يخترعه لنفسه، حتى نبدو كأننا لا نعرف ما يتحدث به كل منا للآخر، فإذا بدا أننا نعرف شيئاً فهو غرضنا المباشر، فيكون كلامنا كالغريبان نعيقًا، وليكن ثرثرة متقنة وصياحًا وزعيقًا، أما أنت أيها الترجمان، فلتستعن السياسة، ولتحذق الوساطة، هلموا

اخبثوا، ها هو ذا قادم، إنه سيقضي ساعتين نائمًا، ثم يعود فيقسم على الأكاذيب التي اخترعها أنه لمن الصادقين.

(يدخل بارولس.)

بارولس: الساعة العاشرة، في هذه الساعات الثلاث فسحة كافية للذهاب إلى البيت وما سأقول إنني قد فعلته؟ ينبغي أن يكون ما يؤيده اختراعًا بارعًا، وتلفيقًا متقنًا يؤدي إلى المراد منه، لقد بدعوا يَشْتَمُون رائيحتي، وييصرون دخاني، وأخذت الفضيحة في هذه الأيام تدق بابي، وأرى لساني مفرطًا في الجراءة والبيان، ولكن قلبي لا يزال يواجه مخاوف النزال والطعان، فلا يجسر على ما يرويه اللسان.

الشريف الثاني: هذه أول كلمة حق أجزم لسانك فنطق بها.

بارولس: أي شيطان هذا الذي دفعني إلى التعهد باسترداد هذه الطبلية وأنا العليم بأن استردادها ضرب من المُحال، وما دمت أعلم أن هذا المطلب ليس هديفي؟ لا معدى عن إصابة نفسي ببعض الجراحات، لأقول إنني تلقيتها في المعارك، ولكن الجروح اليسيرة لن تؤدي المراد، فسيقولون ألم تخرج منها إلا بهذه الخدشات؟ ولست على الجروح النجل بقادر، ولا على الأذى البالغ بالجسور، فما الحجة إذن وما الحيلة؟ ... أيها اللسان ... لا بد لي من أن أضعك في فم بائعة زبد¹ أو أبتاع بغلة بايزيد² إذا أنت ورطنتي في هذه المهالك، ودفعت بي إلى هذه المآزق.

الشريف الثاني: أيمن أن يكون على بيئة من نفسه، ثم يتراءى في هذه الصورة التي يبدو بها؟

بارولس: أود لو أن تمزيق ثيابي يؤدي الغرض، أو كسر سيفي الإسباني يفي بالمراد.

الشريف الثاني (لنفسه): ولكننا لن نتيح لك ذلك، ولن نتركك تغلت بهذه السهولة.

بارولس: أو أحلق لحيتي وأقول إنها خدعة حربية.

الشريف الثاني (لنفسه): ولا هذا يغني.

بارولس: أو إغراق ثيابي لأقول إنني جُردت منها تجريدًا.

الشريف الثاني (لنفسه): ولا هذا يكاد يُجدي.

بارولس: ولو حلفت بأنني ألقيت بنفسي من نافذة القلعة.

الشريف الثاني (لنفسه): من أية مسافة؟

بارولس: ثلاثون قامة.^٣

الشريف الثاني (لنفسه): لن يصدقك أحد ولو أقسمت ثلاثة أيمان مغلظة عليه.^٤

بارولس: ليت لي طيلة من طبول العدو لأقسم أنني استرددتها.

الشريف الثاني (لنفسه): ستسمع في الحال قرع واحدة.

بارولس: الآن أسمع قرع طبول العدو.

(صیحات من الداخل).

الشريف الثاني: تروكا موفساس، كارجو، كارجو، كارجو.

الجميع: كارجو، كارجو، فيلياندا، باركاريو، كارجو.^٥

(يمسكون به ويعصبون عينيه).

بارولس: الفداء، الفداء، لا تحجبوا عيني.

الترجمان: بوسكوس ترومالدو بوسكوس.

بارولس: أعرف أنكم من فرقة المسكوس، وأنني سأفقد حياتي لجهلي بلسانكم، وإذا كان منكم ألماني هنا أو دانمركي أو هولندي أو إيطالي أو فرنسي، فليكلمني فإني كفيل بأن أكشف عما سوف يؤدي إلى هلاك الفلورنسي.

الترجمان: بوسكوس فوفادو، إني أفهمك، وأستطيع أن أتكلم لغتك — كريلينبتو — ارجع إلى دينك، واستقبل منيتك، إن سبعة عشر خنجرًا مصوبة إلى صدرك.

بارولس: آه.

الترجمان: صل لله، صل لله، صل لله، مانكا رافيانيا دولشي.

الشريف الثاني: أوسكوربيدولشي فوليفاركو.

الترجمان: إن القائد ليرتضي الإبقاء عليك وسيساق بك وأنت معصوب العينين على هذا النحو ليعرف معلومات منك، فلعلك قائل شيئًا تنقذ به حياتك.

بارولس: أبقوا على حياتي أقل لكم أسرار معسكرنا جميعاً، وأنبئكم بقواتنا، وأهدافنا، بل إنني لقائل لكم ما فيه العجب العجائب.

الترجمان: ولكن أقائل أنت صدقاً؟

بارولس: اللعنة عليّ إن لم أفعل.

الترجمان: أكوردو لنتا، هلم، لقد مُنحت مهلة.

(يخرج مع بارولس تحت الحراسة، صيحات قليلة من الداخل.)

الشريف الثاني: اذهب قل للكونت روسيون وأخي إننا قد قبضنا على الحجل، وسنبقيه معصوباً مكمماً حتى نسمع منهما.

جندي: طاعة يا حضرة الضابط.

الشريف الثاني: وسيكشف أمرنا كلنا لأنفسنا، قل لهما ذلك.

الجندي: سأفعل يا سيدي.

الشريف الثاني: وقل لهما إنني سألقي به في غيابة السجن وأعتقله إلى أن يفعل هذا.
(يخرجان.)

المشهد الثاني

(يدخل برترام والفتاة «ديانا».)

برترام: لقد أنبئوني أنك تسمين فونتيل.

ديانا: كلا يا مولاي الكريم! بل ديانا.

برترام: أنت الربة ذات اللقب، وإنك لجديرة به وبأكثر منه. ولكن أيتها الإنسانية الجميلة أليس للحب في هيكلك الجميل موضع؟ إذا لم يكن تشغل نار الشباب الشريفة المندلعة خاطرك فلست فتاة، من لحم ودم، بل أنت تمثال جامد، ولحين تموتين يجب أن تكوني كما أنت، باردة هامة عبوساً لا تتحركين، أما الآن فيجب أن تكوني كما كانت أمك حين ولدتك، أيتها المخلوقة الحسنة.

ديانا: لقد كانت يومئذ مخلصة وفيّة.

برترام: فلتكوني أنت مثلها.

ديانا: كلا، إن أُمي أدت الواجب عليها، وهو يا مولاي ما أنت مدين به لزوجك.

برترام: حسبك لا تزيد في هذا الموضوع ولا تحاولي أن تقولي شيئاً ضد إيماني، لقد أرغمت على زواجها إرغاماً، ولكن قسمًا برباط الله المحبب أني سأؤدي إليك كل ما يوجبه ذلك الحب ويتطلبه من خدمات.

ديانا: إي والله، إنك تخدمنا حتى نخدمك، ولكن إذا قطفت ورودنا، لم تترك لنا غير أشواكنا، لتشكنا، وتسخر من عُرينا وخلاء وعودنا.

برترام: لكم أقسمت، ولكم حلفت!

ديانا: لا تحقق الحق كثرة الأيمان،^٦ ولكن القسم الأوحـد الصريح هو الذي يشهد بالحق، وتحق الشهادة به، ونحن نذكر اسم الله نفسه حين نقسم يميناً، ولكن اسم الله نفسه لا يجعل الناس أكثر تصديقاً للقسم إذا كان مغايراً للحقيقة. أرجو أن تتبني هل تصدق أقسامي إذا أنا أقسمت بحقه وعظمة صفاته، أنني أحبك وأعزك، في حين أنني لا أستشعر حباً لك ولا إعزازاً. لا خير في يمين بالله إذا عُقدت النية على اقتراف عمل يغضبه، وارتكاب فعل لا يرضيه، إن أيمانك إذن ألفاظ سقيمة، وصفات وشروط — في رأيي على الأقل — غير مؤكدة ولا مضمونة.

برترام: غيريها وبديها، ولكن لا تكوني هكذا قاسية، في التمسك بالنقاء والقدسية، إن الحب مقدس، وأنا في صدق فطرتي لم أعرف يوماً الخدع التي تتهمين الرجال بها، فلا تتباعدني، ودعي عنك الجفاء، وهبي نفسك لشهوأتي «المريضة» حتى يتوانى لي البرء منها والشفاء،^٧ قل لي إنك لي، تشهدني أن حبي كما يبدأ، لن يكون له انتهاء.

ديانا: أرى الرجال يحاولون أخذنا على غرة منا، أملاً في إيقاعنا، في أثناء غفلتنا وطيشنا،^٨ أعطني هذا الخاتم.

برترام: أعيرك إياه يا عزيزتي، ولكن لا قدرة لي على النزول عنه.

ديانا: أتأبى يا مولاي أن تعطينيه؟

برترام: إنه شرف يتصل ببيتنا، توارثناه من أسلافنا ولو تخليت عنه لكان ذلك أكبر وزر في هذا العالم.

ديانا: وشرفي أنا هو كهذا الخاتم، وعفا في هو درة بيتنا، توارثناها عن كثير من آبائنا، ولو تخليت عنه لأقترفت أكبر وزر في هذا العالم، وهكذا ترى أن منطقك نفسه يجعل بطولة الشرف في جانبي ضد عدوانك الباطل.

برترام: ها هو ذا الخاتم خذيه، وليكن بيتي وشرفي وحياتي ملك يمينك، فانظري بماذا تأمرين.

ديانا: إذا انتصف الليل فأطرق نافذة مخدعي، وسأحتاط للأمر حتى لا تسمع أمي، والآن عاهدني حقاً أنك حين تغزو فراشي الذي كان حتى تلك اللحظة طاهراً عفيفاً لن تمكث فيه غير ساعة واحدة، وألا تكلمني خلالها، إن لدي أسباباً قوية، ستعرفها حين يُرد هذا الخاتم إليك، وسأضع تحت جناح الليل في إصبعك خاتماً سواه، ليبقي على الأيام رمزاً لما أتينا به، وتذكيراً لما فعلناه، فإلى الملتقى ولا تخلف الموعد، فقد ظفرت مني بزوج وإن كان أُملي قد تحقق أو «أخفق».^٩

برترام: بل لقد نلت منك بالعشق جنة الأرض.

ديانا: إذن فلتطل بك الحياة لتشكر رب الجنة وإياي، ولعلك في النهاية فاعل.

(يخرج برترام.)

لقد نباتتني أمي كيف سيغازلني ويتودد، كأنها في صميم قلبه وتقيم وتتردد، لقد قالت لي إن الرجال في الأقسام والأيمان سواسية، وها هو ذا قد أقسم أن يتزوج بي، إذا ماتت زوجته وقضت، إذن سوف أعاشره في المهجع وأشاركه في المرقد، حين أدفن تحت الثرى وأوسد، وما دام الفرنسيون هكذا أهل خداع وتخدير، فإني أقسم أن سأعيش وأموت عذراء، وأحسب أن لا إثم في هذا التكرار للاحتيال على من يريد الفوز ظلماً وبهتاناً.

(تخرج.)

المشهد الثالث

(يدخل الشريفان الفرنسيان وجنديان أو ثلاثة.)

الشريف الأول: أولم تسلم إليه كتاب أمه.

الشريف الثاني: سلمته إليه منذ ساعة، وإن فيه شيئاً جارحاً لشعوره، فقد كاد يستحيل إلى رجل آخر عند قراءته.^{١٠}

الشريف الأول: إن عليه لتثريباً شديداً، أن ينفذ عنه زوجاً كريمة، وسيدة جميلة.

الشريف الثاني: ولا سيما أنه استهدف لغضب مقيم من الملك، ونقمة لن تزول، برفض الهناءة التي عرضها عليه، وإباء السعادة التي اصطفها له، وسأنبئك بأمر أرجو أن تطوي صدرك عليه.

الشريف الأول: إن نطقت به كان هو الميت وأنا له القبر.

الشريف الثاني: لقد غوى هنا في فلورنسا سيدة شابة عُرِفَت بالعفاف، وسينفذ الليلة لأول مرة غرضه باستلاب شرفها، وقد أعطاه خاتمه التذكاري وهو يحسب أنه قد عُوض عنه في مساومته الأثيمة.

الشريف الأول: حمانا الله من الثورة على أنفسنا والغدر بذواتنا، فإننا نحن كما نريد أن نكون.

الشريف الثاني: لسنا إلا غدرة خونة لأنفسنا، فلا نزال كدأب كل غدر، وشأن كل خيانة، نراها تتكشف، حتى تنال جزاءها الحقير الدنيء، فمن يسيء إلى حسن سمعته، ويكيد كيده ليطيّب أحوثته، يغرق في تيار شهوته.

الشريف الأول: أليس من نقمة الله علينا أن نكون المعلنين لمآربنا المحرمة، إذن لن نكون الليلة في صحبته.

الشريف الثاني: حتى ينقضي منتصف الليل، لأنه الحريص على مواعده، الحفيظ لساعته.

الشريف الأول: إن الموعد يقترب بسرعة، ويسرني أن يرى صاحبه على المشرحة، حتى يتبين مدى الخطل في أحكامه، وفساد الرأي عنده، إذ يصر على تقدير هذا المحتال الذي اصطنعه لنفسه، أكثر من قدره.

الشريف الثاني: لن نتدخل في أمره حتى يحضر، لأن حضوره سيكون السوط الذي يهوي على صاحبه.

الشريف الأول: وإلى أن يأتي لنتحدث عن الحرب، ماذا لديك من أنبائها ...

الشريف الثاني: سمعت أن هناك مفاتحة في الصلح.

الشريف الأول: بلؤكد لك أن صلحًا قد أبرم.

الشريف الثاني: وماذا ترى الكونت روسيون إذن صانعًا؟ أترأه سيواصل أسفاره، ويوغل في ترحاله، أم سيعود إلى فرنسا.

الشريف الأول: يبدو لي من سؤالك هذا أنك لست صاحب سره وأخًا لمشورته.

الشريف الثاني: لا قدر الله يا سيدي، حتى لا أكون شريكًا له في أفعاله.

الشريف الأول: اسمع يا سيدي، إن زوجه منذ شهرين فرّت من بيته، وغرضها هو الحج إلى مزار سان جاك الكبير، وقد أدت هذا العمل المقدس على أتم وجهه، وجلال قدسيته، ثم أقامت بذلك الموضع ما شاءت أن تقيم، وهي فريسة للأحزان، لركة طبيعتها، نهب للأسى من فرط لوعتها، حتى فاضت روحها وجادت بآخر أنفاسها، فهي اليوم تغني في السماء، وتشدو في الجنة.

الشريف الثاني: وبأي شيء تؤيد النبأ؟

الشريف الأول: إن أقوى البيانات على صدقه كتبها، التي تؤيد قصتها بما فيه موتها نفسه، وإن موتها نفسه، وهو ما لا تستطيع هي أن ترويّه، قد أيده قسيس الجهة.

الشريف الثاني: أعند الكونت بكل هذا علم؟

الشريف الأول: أجل ... بكل دقائقه، وجملة حقيقته.

الشريف الثاني: يحزنني حقاً أنه سيسر بها ويستريح إليها.

الشريف الأول: لكم نجد السلوة والراحة في مغارمنا وخسائرنا أحياناً.

الشريف الثاني: وكم أحياناً أخرى نغرق مغانمنا في لجة دموعنا؟، إن الشرف الباذخ الذي كسبه هنا ببسالته، سيقابل في وطنه بعار يعدل هذا الشرف في قوته.

الشريف الأول: إن نسيج حياتنا مصنوع من خيوط جيدة وخيوط رديئة معاً، وإن حسناتنا لتزهي وتفخر إذا لم تؤذيها أغلاطنا، ولم تغلّها بالسوط سيئاتنا، كما أن جرائمنا وخطايانا ستهوي بنا إلى الحضيض إذا لم تتفرق بها فضائلنا.

(يدخل رسول.)

ماذا وراءك، أين مولاك ...

الرسول: لقي الدوق في الطريق يا سيدي، فاستأذن منه في السفر وسيرحل مولاي غداً إلى فرنسا، وقد حمّله الدوق كتب توصية إلى الملك.

الشريف الثاني: لن تُجدي وإن بالغت في التوصية.

(يدخل الكونت برترام روسيون.)

الشريف الأول: ولن تخفف مهما تكن حلاوتها من مرارة غضب الملك وموجدته، ها هو ذا الكونت. كيف هذا يا مولاي، ألم ينقض منتصف الليل.

برترام: لقد أنقذت الليلة ست عشرة مهمة، كل منها طولها شهر، فقد شرحت للدوق باختصار جملة فوزي في المعارك وانتصاراتي، ثم استأذنته في عودتي، وودعت المقربين منه، ودفنت زوجًا، وحددت عليها، وكتبت إلى والدتي أنني عائد إليها، واستأجرت مطاياي، وبين هذه المهام الكبيرة قضيت أوطارًا، أقل منها أخطارًا، كان آخرها أكبرها، وإن لم أنتهِ بعد منه.

الشريف الثاني: إذا كانت هذه المهمة شاقة، وأنت غداً راحل من هذه الديار، فإن المهمة إذن تقتضيك العجلة والبدار.

برترام: أريد بقولي أنها لم تنتهِ أي أخشى أن أسمع عنها بعد، ولكن لنسمع هذا الحوار بين المهرج والجندي، هاتوا هذا المزيف المحتال، الذي خدعني، كالعراف الذي يجعل قوله على حرف، ويدع كلامه يحتمل معنيين، ويُفتح على تفسيرين.

الشريف الثاني: أحضروه إلينا. لقد قضى الليل كله مقيداً، هذا الوغد الجسور المسكين.
(يخرج الجنود.)

برترام: لا بأس، لقد أخذ بذنوبه، وسأقت به رجلاه إلى الموضع الخليق به، بعد أن وضع المهماز في حذائه،^{١١} اغتصاباً، وزعم الشجاعة والفروسية زوراً وكذباً، وكيف كان سلوكه؟ ...

الشريف الثاني: لقد نبأْتُك أنفاً يا مولاي، بأن القيد في رجليه، فهو فيه مسلوك، ولكن إن شئت أن أرد عليك بالأسلوب الذي تفهمه أقول إنه يبكي كالمرأة التي سكبت لبنها، واعترف بكل ما اجترح من ذنوب لمرجان الذي ظنه قسيساً، فلم يغادر شيئاً من عهد بداية وعيه إلى هذه اللحظة التي وُضع فيها القيد في رجليه، إلا باح به، فماذا تظن أنه قال في اعترافه؟

برترام: لا شيء فيه عني، أليس كذلك؟

الشريف الثاني: لقد دونا اعترافه، وسيتلى عليه في محضره، فإن جاء فيه ذكرك، يا مولاي، وأعتقد أن ذكرك فيه وارد، فاصطبر لسماعه.

(يدخل بارولس والترجمان.)

برترام: اللعنة عليه، هذا المكمم، إنه لا يقدر أن يقول عني شيئاً ... اغضض من صوتك، اغضض من صوتك.

الشريف الأول: المعصوب جاء ... بورتو تروتوروسا.

الترجمان: إنه يطلب لك آلة التعذيب، فماذا أنت قائل بغير حاجة إليها.

بارولس: سأعترف بما أعرف، بغير إكراه، أما إذا شككتُموني كما تشك الفطيرة، فلن أقول شيئاً.

الترجمان: بوسكو شمسرشو.

الشريف الأول: بوبلييندو شكرموركو.

الترجمان: إنك لقائد رحيم ... إن قائدنا يأمرُك بأن ترد على أسئلتِي المدونة.

بارولس: سأرد صدقاً، وأقول حقاً، لأنني أريد الحياة.

الترجمان: يسأل أولاً، كم عدد فرسان الدوق، ما قولك في هذا؟

بارولس: خمسة آلاف أو ستة، ولكنهم ضعاف ولا يصلحون والجنود موزعون مبعثرون، والقواد محتالون مساكين، هذا هو قلبي أغامر فيه بالسمعة والمهابة، وأرجو أن أوهب الحياة.

الترجمان: هل أدون هذا الرد كما هو ...

بارولس: افعل، إني مستعد أن أقسم بالسر المقدس عليه،^{١٢} كيف وبأي طريقة تشاء.

برترام: كلاهما سيان عنده، يا له فيه من عبد خسيس غير خليق بالنجاة.

الشريف الأول: أنت مخطئ يا مولاي، هذا هو مسيو بارولس المحارب المقدام، كما اعتاد أن يصف نفسه، والجندي الذي جمع كل فنون الحرب ونظرياتها في عقدة ملفعته، والتمرس بها في جفن خنجره.

الشريف الثاني: لن أثق بعد اليوم بإنسان، لأنه يحتفظ بسيفه نقي النصل نظيف السنان، ولن أصدق أنه قد حوى كل شيء ووعى، لأنه يرتدي ثياباً أنيقة.

الترجمان: انتهينا من تدوين هذا الذي قلت.

بارولس: لقد قلت خمسة أو ستة آلاف من الفرسان، ولقد أضفت أو نحوها اكتب هذا لأنني أريد أن أقول الحق.

الشريف الأول: إنه في هذا جد قريب من الحق.

برترام: ولكني لا أشكره عليه، لطبيعة الأسباب التي دفعته إليه.

بارولس: محتالون مساكين من فضلك اكتب هذا عني.

الترجمان: لقد دونته.

بارولس: شكر الخاضع يا سيدي، الحق حق، فإن أولئك المحتالين المساكين بشكل عجيب.

الترجمان: اسأله وكم مشاتهم ... ماذا تقول في هذا؟

بارولس: يمين الحق يا سيدي، سأقول الحق إذا قُضي لي أن أعيش في الساعة الراهنة، دعني أتذكر، سبوريو مائة وخمسون وسباستيان مثلهم، وكوركيباس مثلهم وجاك مثلهم، وجوليتان وكوزمو ولورديك وجراتاي، مائتان وخمسون لكل منهم، وسريتي، التي تحت إمرتي، وسرايا شتوفر وفوموند، وبنيتاي مائتان وخمسون كذلك، أعني أن الجملة، بين معطوب وسليم لا تتعدى، وحياتي، خمسة عشر ألفاً، نصفهم لا يقوى على نفص الثلج عن قلائسهم، خشية أن تنتفض أجسامهم من هذا الجهد انتفاضاً.

برترام: ماذا يصنع به.

الشريف الأول: لا شيء، ليتلق منا شكوراً، سله عني وما مكاني عند الدوق.

الترجمان: هذا مدون لدينا، سله هل في المعسكر ضابط فرنسي يدعى الكابتن ديمان،^{١٢} وما منزلته عند الدوق وما مدى بسالته ونزاهته وخبرته بالحروب، وهل يعتقد أنه لا يمكن بالمال الطائل، والذهب الكثير، أن يرشي لينتفض ويتمرد، ما قولك في هذا وما علمك به.

بارولس: أرجو أن تدعني أجيب عن كل سؤال من هذه الأسئلة على حدة، اسألنيها منفردة.

الترجمان: هل تعرف هذا الضابط — ديمان؟

بارولس: أعرفه، لقد كان صبي مرقع للملابس القديمة في باريس، فضُرب بالسياط وطُرد من خدمته لإغرائه بنتاً بلهاء مسكينة من البنات اللاتي يتولى المختار رعايتهن، وهي ساذجة خرساء لم تستطع أن تقول له لا.

(ديمان يرفع يده عليه وهو غاضب.)

برترام: لا ترفع من فضلك عليه يديك، إنني أعرف أنه سيلقى يوماً حتفه.

الترجمان: وهل هذا الضابط في معسكر دوق فلورنسا؟

بارولس: نعم، على قدر علمي، وهو خسيس حقير.

الشريف الأول: لا تنتظر إليّ هكذا، سنسمع عن مولاك حالاً.

الترجمان: وما مكانته عند الدوق؟

بارولس: الدوق لا يُعرف عنه إلا أنه ضابط حقير عنده، وقد كتب إليّ منذ يومين يطلب إليّ أن أطرده، وأظن أن كتابه معي في جيبِي.

الترجمان: سنفتشك.

بارولس: في الحق يحزنني أن أقول إنني لا أعرف هل هو في جيبِي أم هو في ملف مع كتب أخرى تلقيتها من الدوق، والملف في خيمتي.

الترجمان: ها هو ذا، هذه ورقة، هل أتلو عليك ما فيها؟

بارولس: لا أدري هل هي أم لا.

برترام: إن ترجماننا يحسن قراءتها.

الشريف الأول: كل الإحسان.

الترجمان: يا ديانا ... إن الكونت أبله عنده ذهب كثير.

بارولس: هذا ليس كتاب الدوق يا سيدي ... بل هو تحذير لفتاة عفة في فلورنسا تدعى «ديانا»، حتى لا تتخدع بإغراء كونت يدعى الكونت روسيون وهو غلام أحمق عاطل، ولكنه إلى جانب ذلك كله داعر عاهر، أرجوك يا سيدي أن تعيد الورقة إلى مكانها.

الترجمان: كلا، سأقرأها أولاً بعد استئذانك.

بارولس: إن الغرض الذي أردته من ذلك الكتاب شريف، من ناحية الفتاة ومصلحتها، فقد عرفت هذا الكونت الشاب غلاماً خطراً فاجراً كالحوت في افتراس العذارى، يلتهم كل ما يجده من لحم طري.

برترام: لعنة الله عليك من نصاب محتال ظاهراً وباطناً.

الترجمان (يقراً): «فإذا أقسم لك قسمًا، فأمره أن يلقي في إثره ذهبًا، وما يلقيه خذيه، فهو إذا ابتاع شيئاً نسيئه لا يؤدي أبدًا ثمن ما يبتاع، إن من تحسن المساومة فقد أخذت نصف مكسبه. فساومي إذن وأحسني المساومة قبل أن تعطيه ما يريد، وقولي يا ديانا إن جندياً نبأك بهذا عنه، وحذرك هكذا منه، خليك مع الرجال، وإياك وقبلات الغلمان، وإذا كنت تريدين الحقيقة، فاعلمي أن «الكونت» مجنون وأنا

بذلك عليهم، يدفع قبل أن يملك، ولا يدفع وهو مدين ... المخلص إليك، في همسة في أذنيك ... بارولس».

برترام: سيساط أمام الجيش، وعلى جبينه هذه الأبيات من الشعر.

الشريف الثاني: هذا هو صديقك المخلص يا سيدي، واللغوي العريف بعديد الألسن، ومختلف اللغات، والجندي «القدير على كل شيء» في المعارك والساحات.

برترام: لقد كنت من قبل أحتمل أي شيء إلا الهررة، والآن إنه لهر في عيني.

الترجمان: يلوح لي يا سيد من نظرات قائدنا أننا سنضطر إلى شنقك.

بارولس: حياتي أولاً يا سيدي بأية حال، لا لأنني من الموت خائف، بل لأنني كثير الذنوب، وأريد أن أكفر عنها بقية العمر، فدعني يا سيدي أعش في محبس، مقيداً أو في أي مكان، إذ حسبي أن أحيأ، ويكفيني أن أعيش.

الترجمان: سنرى ماذا يمكن أن نفعل، إذا كنت تعترف بكل شيء، فلنعد إلى الضابط ديمان، فقد رددت على السؤال الذي يتصل بمكانته عند الدوق، وعن مدى بسالته، فما قولك في نزاهته وأمانته؟

بارولس: إنه لا يتورع عن سرقة بيضة من الدير يا سيدي،^{١٤} وهو يحكي نيسوس^{١٥} في اختطاف الفتيات وسلب عفتهم، ويعلن أنه الحنّاث بالأيمن، الناكث بالمواثيق والأقسام، وهو في الحنث بها أقوى من هرقل وأشدّ بأساً، وإنه في الكذب لذلق اللسان، فياض البهتان، حتى ليزري كذبه بالصدق، ويجعل الحق أشبه بالهذيان، والسُّكر هو أفضل صفاته، وأحسن سجاياءه، فهو يشرب كالحلوف،^{١٦} وفي نومه لا يحدث غير أذى يسير، إلا في الفراش والغطاء، وقد عرفوا هذا عنه، فجعلوا فراشه من القش، وليس عندي يا سيدي ما أزيده بسبيل أمانته، غير قولي إن لديه كل ما ينبغي للرجل الأمين ألا يكون لديه، أما ما ينبغي أن يتوافر عند الرجل الأمين، فليس عنده منه شيء.

الشريف الأول: بدأت لهذا أحبه.

برترام: لهذا الوصف الذي يصف به أمانته؟ اللعنة عليه، إنه يزداد عندي إمعاناً في أنه الهر؟

الترجمان: وما قولك عن خبرته بالحرب؟

بارولس: يمين الله يا سيدي، لقد حمل الطلبة في طليعة فرقة الممثلين الإنجليز،^{١٧} ولست أريد أن أكذب عليه، ولكني لا أعرف عن جنديته غير ما قالت، إلا أنه كان له في تلك البلاد الشرف يوماً في العمل

ضابطًا في موضع يقال له «مايل أند»^{١٨} للتدريب على ازدواج الصفوف، وكان بودي أن أضفي على هذا الإنسان من الأمجاد والمكارم كل ما في الإمكان، ولكنني لست من هذا كله على يقين.

الشريف الأول: لقد تجاوز في خسته الخسة ذاتها حتى بات منها كالعلم الفرد، والفذ الأوحد، فلا جناح عليه ولا تثريب.

برترام: اللعنة عليه، إنه هر أبدًا.

الترجمان: إذا كانت صفاته بهذا القدر البخس فلا حاجة بي إلى أن أسألك هل يفسده الذهب، فيتمرد؟

بارولس: إنه يا سيدي من أجل بضعة دراهم ليبيع عمره، ويتنازل عن إخلاصه، وميراثه ويحرم الوارث من تراثه أبد الأبد.

الترجمان: وما قولك في أخيه، الضابط ديمان الآخر؟

الشريف الثاني: لماذا يسأله عني؟

الترجمان: من يكون؟

بارولس: غراب في العش ذاته، لا يماثل كثيرًا أخاه في الطيبة والخير، ولكنه يفوقه كثيرًا في الخبث والشر، ويجاوزه جبناً، وإن كان أخوه مشهورًا بأنه من أجبن الجبناء، وهو في التقهقر أسرع من أي خادم فرارًا، وفي التقدم إلى الحومة ينكل نكلًا.

الترجمان: إذا أنقذت حياتك هل تتعهد بخيانة دوق فلورنس؟

بارولس: أي نعم، وقائد فرسانه الكونت روسيون.

الترجمان: سأحدث همسًا مع القائد لأعرف بماذا يأمر.

(على انفراد.)

بارولس: لا طبول بعد الآن، اللعنة عليها جميعًا، يخيل لي أنني أستأهل كل ما جرى، أمن أجل نيل رضا ذلك الغلام الشهواني الذي يدعى الكونت ومخادعته أعرض نفسي لهذا الخطر، ولكن من كان يظن أن هناك كمينًا وأنني واقع فيه.

الترجمان: لا مفر يا سيد غير الموت، فالقائد يقول، إن مخلوقًا مثلك، كشف بخيانة وغدر أسرار الجيش الذي يعمل فيه، وعرض بأناس لهم مكانتهم الرفيعة، وأقدارهم السامية، هذا التعريض الشنيع، لا يمكن

أن يخدم الدنيا خدمة صادقة، ولا رجاء للعالم فيه، فلا مفر لك من الموت، أقبل أيها السياف اقطع رأسه.
بارولس: يا مولاي وسيدي، أبقِ عليّ حياتي، أو دعني أرى بعيني مماتي.

الترجمان: ليكن ما تريد فودّع جميع أصحابك (يرفع العصا عن عينيه) انظر حولك هل تعرف أحدًا هنا؟

برترام: نعمت صباحًا أيها الضابط الكريم.

الشريف الثاني: بركات الله عليك يا ضابط بارولس.

الشريف الأول: سلمت أيها الضابط النبيل.

الشريف الثاني: أية تحية أحملها عنك إلى مولاي لافيه، لأنني عائد إلى فرنسا.

الشريف الأول: هلا أعطيتني أيها الضابط الكريم نسخة من الأنشودة التي كتبتها إلى ديانا في حق الكونت روسيون، ولولا أنني جبان كما وصفت، لأرغمك على إعطائي إياها إرغامًا، ولكن وداعًا.
(يخرج برترام والشريفان.)

الترجمان: لقد وضعت أيها الضابط، وذهبت حياتك، ولم تبقَ إلا ملفتك هي وحدها التي لا تزال معقودة.
بارولس: ومن ذا الذي لا يتحطم، إذا دبر له كيد؟

الترجمان: إذا استطعت أن تلتمس لك بلدًا لم يصب فيه بمثل هذا العار غير نسائه، جاز لك أن تتشئ فيه أمة قليلة الحياء، وداعًا يا سيدي، إنني سأمضي إلى فرنسا أيضًا، وسنتحدث فيها عنك أبدًا.
(يخرج.)

بارولس: ولكني مع ذلك كله شاكر، ولو أنني أوتيت قلبًا كبيرًا لانفجر من هول هذا انفجارًا، لن أكون بعد اليوم ضابطًا، بل سأكل وأشرب وأنام ككل عبد من عباد الله ضابطًا أو أنفارًا، ولألزم قدري، وأعرف شأني وخطري، فذلك وحده هو الكفيل لي بالحياة، فقل لمن يرى نفسه متفاخرًا، «تفاجأ» خفّ يومًا كهذا، وسيأتي يوم يبدو كل تفاج فيه حمارًا، وأنت أيها السياف اصدأ في جرابك، ويا أيها الحياء ابرد من أحرارك، ولتحيا يا بارولس آمنًا مطمئنًا بعارك، وما دمت بالعبث والتهريج قد هزئ بك، فليكن في الهزء توفيقك ونجاحك فإن لكل إنسان حي مكانًا، ووسائل وأعوأنا ... وإني للاحق بهم.

(يخرج.)

المشهد الرابع

فلورنسا — حجرة في بيت الأرملة

(تدخل هيلين والأرملة وديانا.)

هيلين: أحسبك قد أدركت أنني لم أسئ إليك، والله على ما أقول شهيد، وأمام عرشه أجتو، قبل أن أتم القصد، وأبلغ المراد، لقد أدبت إليه المأرب المطلوب، عزيزاً لديه كالحياة، مما يجعل الوفاق، يطل من صدر التتري الصلد كالحجر الصوان، ويحدو إلى الشكر والامتنان، وقد نبئت أنه الآن في مارسيليا، ولدينا وسائل نقل مريحة إليها، فاعلمي أنهم يحسبونني ميتة، ذهبت من هذه الدنيا، وقد سرح الجيش، وأسرع زوجي عائداً إلى الوطن متهافئاً، فبعون الله العلي العظيم، وبعد استئذان مولاي الملك الكريم، لا نلبث أن نلاقي الترحيب قريباً.

الأرملة: أيتها السيدة الرفيقة، لم تجدي في يوم من الأيام خادماً يقبل أمرك بأحسن مما تقبلناه.

هيلين: ولا سيدة، بل لا صديقة، أصدق خاطر جهداً في العمل على مجازاة صنيعك، ومكافأة محبتك، وثقي أن الله أرسلني لكي أكون لابنتك بائنة، كما قدر لها أن تكون لي على زوجي ظهيراً ونصيراً، ولكن لكم الله أيها الرجال! ما أغرب شأنكم، حتى ليتسنى بلطف الحيلة، الاستعانة عليكم بما تكرهون، والانتفاع بما تغضبون، حين تُخدعون في ظلمة الليل، فيمسي ما تكرهونه محبباً، ويبيت ما تنفرون منه مشتهى مجتبي، كذلك هي الشهوة، تلهو بما لا ترضاه، وتعبث بما لا تهواه، وتستعيض بالحاضر عما هو بعيد، ولكننا إلى هذا الحديث عائدون وله على الأيام مزيد، وأنت يا ديانا، لا بد من أن تعاني بعض العناء، من أجلي، وتنفيذاً لتعاليمي الأليمة.

ديانا: اجعلي الموت والوفاء، مقترنين بما تأمرين، فإني طوع أمرك، متحملة ما تريدين.

هيلين: لا يزال أمامك من العناء ما أرجو أن تحتلميه، وأنا عند كلمتي، بارة بعدتي، وسيدور الزمان فيأتي بصيف، يصبح للشجر فيه ورق وشوك، وجمال وأذى، وعذوبة ووخز، فلنرحل، إن مركبتنا على الأهبة، والوقت يدعونا أن نعمل، ولا ضير من البداية، إذا سعدت النهاية، والمثل الذي يقول خواتيم الأمور تيجانها صحيح على الدوام، والخاتمة هي تاج الأمور، ومهما تكن الوسيلة فإن الغاية هي التي تشتت بين الناس.

المشهد الخامس

حجرة في قصر الكونتيسة

(تدخل الكونتيسة ولافيه والمهرج.)

لافيه: كلا، كلا، كلا، إن ابنك قد أضله مخلوق أفّاق مهرج، خبثه لأن يفسد شبان أمة بأسرها، ويضل فتیان قوم بضلاله وأفنه، ليت زوج ابنك كانت حية إلى الساعة وابنك الآن هنا، أقرب إلى حظوة الملك منه إلى هذه النحلة الحمراء الذيل^{١٩} الحقيمة التي أتحدث عنها.

الكونتيسة: وددت لو أني لم أعرفه، لقد كان في عيني ممات أفضل سيدة تحمد الطبيعة على خلقها، لو أنها كانت من لحمي ودمي، وكبدتني أعز أنين الأم، وأحب أوجاع الوالدة، لما كان لها عندي من الحب ما هو أقوى جذورًا، ولا هو أشد تأصلًا.

لافيه: لقد كانت سيدة صالحة، لقد كانت سيدة صالحة، لا نظفر باقتطاف عشبة مثلها قبل أن ألف بقلة من غير نوعها.

المهرج: حقًا يا سيدي، لقد كانت السعتر الحلو الذي يوضع في «السلطة» أو قل هي العشب الإلهي^{٢٠}.

لافيه: إنها ليست أعشاب السلطة أيها الوغد، بل أعشاب الشميم^{٢١} ذات شذى وعطر.

المهرج: أنا لست بختنصر يا سيدي في علم الحشائش، ولا خبرة لدي بالأعشاب^{٢٢}.

لافيه: أيهما تقرر أنك هو، أوغد شرير، أم ماجن مهرج؟

المهرج: ماجن يا سيدي في خدمة امرأة، ووغد في خدمة رجل.

لافيه: وما حد براعتك، ومدى امتيازك؟

المهرج: أنزع من الرجل زوجته، وأؤدي أنا عمله.

لافيه: فتكون وغدًا في خدمته فعلًا.

المهرج: وأعطي زوجته عصاي يا سيدي لأخدمها^{٢٣}.

لافيه: أشهد لك، فأنت وغد ومهرج حقًا.

المهرج: في خدمتك.

لافيه: كلا، كلا، كلا.

المهرج: ولماذا يا سيدي؟ إنني إذا لم أستطع خدمتك، استطعت خدمة أمير عظيم مثلك.

لافيه: ومن يكون؟ أفرنسي هو؟

المهرج: يمين الله يا سيدي إن له اسمًا انجليزيًا، ولكنه أحر وجهًا في فرنسا منه في إنجلترا.^{٢٤}

لافيه: ومن هو هذا الأمير.

المهرج: الأمير الأسود يا سيدي، أو أمير الظلام، أو بعبارة أخرى الشيطان.

لافيه: خذ هذا الكيس فهو لك، ولست أعطيك إياه لكي أغريك بترك مولاك هذا الذي تتحدث عنه، بل لتظل في خدمته.

المهرج: إنني حطّاب يا سيدي أحب دائمًا النار العظيمة، وهذا المولى الذي أتحدث عنه يوقد نارًا حامية، وهو بلا شك أمير العالم، فلتدع سموه، مستويًا على ملكوته، أما أنا فحسبي الدار ذات الباب الضيق، لأنها في نظري خلو من الفخفة والرواء، لا يدخلها ذوو الفطرة والجلال، وقد يدخلها بعض من القانعين أما الأكثرون فمن البرودة والوهن ورقة البدن بحيث يؤثرن الطريق المزدهر المؤدي إلى الباب الفسيح والنار الموقدة.

لافيه: اذهب حيث شئت، فقد بدأت أملُ منك، أقول لك هذا مقدمًا، لأنني لا أحب أن أتساجر معك، اذهب في سبيلك، واحرص على رعاية جيايدي وحسن خدمتها، ولكن إياك والألاعيب والحيل في معاملتها.

المهرج: إذا استخدمت الحيل معها، فهي بعض عاداتها ولازماتها، فهي من طبعها بمقتضى ناموس الطبيعة وشرعتها.^{٢٥}

(يخرج.)

لافيه: وغد ماکر، وخبيث.^{٢٦}

الكونتيسة: إنه لكذلك، وكان دأب زوجي الراحل أن يلهو كثيرًا به، ويستروح غالبًا إليه، فهو هناك باقي بأمره، ملازم القصر بحق توصيته، وهذا هو ما يجعله يعتقد أن له الإذن في قلة الحياء، والتصريح بالمجون والبذاء، والواقع أنه لا يخطو خطوًا، بل يعدو عدوًا أين يشاء.

لافيه: إنني أستلطفه كثيرًا، فليس ثمة من بأس، وكنت أهم بأن أنبئك، منذ علمي بوفاة السيدة الكريمة، وقرب مقدم ابنك إلى وطنه، أنني تكلمت مع مولاي الملك فرّضي جلالته أن يتحدث بشأن زواج ابنتي، وتفضل بسبب حدائتهما، وصغر سنهما، ورضوانًا منه، أن يكون هو أول من يقترح، ووعد جلالته أن

يفعل، وينسى ما كان في نفسه من الموجودة على ولدك، فالأمر إذن مهياً، والظرف مناسب، فما تقولين يا مولاتي؟

الكونتسة: بكل سرور يا مولاي، وأتمنى من كل قلبي أن يتم ذلك.

لافيه: إن جلالته سيأتي رأساً من مارسيليا، سليماً معافى كما كان في الثلاثين، وسيصل إلى هنا غداً إن لم يكن الذي نبأني بهذا النبأ قد خدعني، ولكنه قلما تكذب أنباؤه في مثل هذه الأمور.

الكونتسة: يسرني أن أرجو لقاءه قبل مماتي، وقد تلقيت كتباً تقول إن ابني سيكون هنا الليلة، فأرجو يا مولاي أن تبقى معي حتى تلتقيا.

لافيه: سيدتي، لقد فكرت من قبل فيما يصح أن أعلل به المثول في حضرته.

الكونتسة: سل تجب يا مولاي، حسبك شرفك الرفيع شفيحاً.^{٢٧}

لافيه: مولاتي، لقد اتخذته أبداً مرشداً هادياً، وأحمد ربي على أنه لا يزال مجدياً.

(يدخل المهرج.)

المهرج: أي مولاتي ... هنا عن كذب مولاي ابنك، وعلى وجهه قطعة من القطيفة،^{٢٨} ولا تعلم إلا القطيفة ذاتها، هل من تحتها ندبة من جرح، ولكنها قطعة كبيرة^{٢٩} جعلت خده الأيسر منتفخاً متضخماً، وتركت خده الأيمن حاسراً وعارياً.

لافيه: إن الجرح النبل، أو الجرح الذي ينال بنبل، ميسم الشرف، فليكن جرحه كذلك.

المهرج: ولكنه وجهك المقطع للشيء والتحمير ...!

لافيه: هيا نذهب يا مولاتي لنرى ابنك، إنني مشتاق إلى الحديث مع هذا الجندي الشاب النبيل.

المهرج: يمين الله إنهم كثر، على رءوسهم قلانس رقاق فخمة، وریش جميل، تتحني بها الهامات، وتومئ لكل إنسان بالتحيات.

(يخرجون.)

^١ كانت بائعات الزبد والبن في الأسواق معروفات بكثرة التقرير والتوبيخ والانتهاز.

^٢ كثر الخلاف بين الشراح في صحة هذه الكلمة هل هي «بغلة بايزيد»، أم وقع فيها تحريف، فقال بعضهم: إنها قد تكون «بغل بلعام» لا بايزيد، وقال آخرون: لعلها «زوجة بايزيد» لا بغلته، وهي «زبيننا»، والغالب أن تكون كذلك للتناسب بينها وبين بائعة الزبد، والمراد أن بارولس يرى أنه لا أمل له في الخلاص السهل من الحرج الذي يضعه فيه لسانه، إلا أن يستعين عليه بالزجر والتأنيب حتى يقلع عن كثرة الادعاء.

^٣ مقياس بحري، والقامة ست أقدام.

^٤ حين قال ثلاثين قامة، اختار الشاعر رقماً مناسباً لعدد الأقسام ففرضها ثلاثة.

^٥ كلام رطانة لا معنى له للتهويز على بارولس وتخويفه.

^٦ حكمة بالغة، يريد بها أن يقول إن كثرة الأقسام لا تدل على أن ما قيل هو الحقيقة.

^٧ وصفها بالمريضة ليتناسب هذا الوصف مع قوله «الشفاء».

^٨ في الأصل عبارة غامضة اختلف الشراح فيها، وذهب فريق كبير منهم إلى أن فيها تحريفاً، فهي في المتن malse ropes وليس لها معنى غير قولك «يصنعون حبلاً»، وهو ما يجعلنا نفكر في «حبائل» الصائد جمع «حبالة» وهي تصنع من الحبال.

^٩ تريد أن تفهمه أن استسلامها سيقضي على أملها في الزواج، وإن كانت تريد أيضاً التلميح لأملها بالنسبة إلى هيلين وما تريد أن تتولاه عنها.

^{١٠} أي بداً مصفراً شاحباً، وهذه العبارة لا تشير إلى أي تأثير معنوي بدليل ما سيأتي بعد.

^{١١} وضع المهماز في حذائه بلا حق، وكان المهماز شارة من شارات الفروسية.

^{١٢} السر المقدس أو العشاء الرباني معروف في الطقوس المسيحية، وقوله «كيف وبأي طريقة تشاء»، معناه أن بارولس لا يعرف جنسية مستجوبه، ومذهبهم الديني، هل هم كاثوليك أو بروتستانت، فهو لهذا يقول إنه على استعداد للقسم بالسر المقدس على أي مذهب يشاءون، أي حسب طلبهم.

^{١٣} هو الشريف الأول.

^{١٤} أي يسرق أي شيء تافه من مكان مقدس لا يصح أن يسرق أحد منه شيئاً.

^{١٥} هو حيوان خرافي يقال له «القنطروس» نصفه إنسان ونصفه حصان، وقد حاول أن يغتصب «دينيره» زوجه هرقل، ولكن هذا بادره بسهم فأرداه.

^{١٦} أي يسكر حتى لا يعي من فرط السكر، والحلوف يُكثر من الشرب.

^{١٧} كانت العادة كلما ذهبت فرقة من الممثلين لعرض مسرحياتها في القرى والريف أن تطوف بشوارعها، وتدق طبولها، وكان الذي يحمل الطبل في الطليعة، والغالب أنه من الجنود الضعفاء الذين لا يعرفون شيئاً، فإذا فرغ من دق الطبل قام أحد الممثلين فخطب في الناس وبَيَّن لهم مزايا المسرحية المزمع تمثيلها.

^{١٨} كان أقوىاء الجسوم من أهل لندن يُطلب إليهم في حالات الطوارئ أن يكونوا جنودًا في الحرس الوطني، فكانوا يذهبون لقضاء يوم واحد في السنة إلى موضع يدعى «أيل أند جرين» خارج المدينة، وكان هذا يعد من النكت التي يندر بها، ويدعى في الاصطلاح «ازدواج الصف» أي الوقوف صفين للتدريب على حركات المشاة.

^{١٩} يقصد بارولس، والنحلة الحمراء الذيل هي التي لا خير منها.

^{٢٠} نبات معروف، وهو (الزعرتر)، وصحيحه بالسين، وفيه حلو وأنواع منه مُرّة، والسلطة أو «السلاد» في اللغات الأجنبية هي المشهيات من الخضر، والعشب الإلهي هو نبات يُعرف بالسذب أو السذاب.

^{٢١} أعشاب الشميم هي التي تشم لزكي رائحتها.

^{٢٢} بختنصر ورد ذكره في سيره دانيال، وقد أصيب بالجنون فكان يأكل الحشيش كالثيران وكان جسمه مبللاً بندى السماء.

^{٢٣} هي العصا التي اعتاد المهرجون حملها لإضحاك الناس، وهو هنا يقصد معنى آخر (أي لكي تستخدمها في ضرب الزوج، وهي عصا صغيرة ذات رأس في صورة مهرج، ولعلها أيضًا الشخصية).

^{٢٤} يشير إلى مرضى «الزهري» المعروف بكثرة في فرنسا.

^{٢٥} ألعيب الخيل، هي العادات واللازمات السيئة التي تبدو على الخيل الحرنة أو الشريرة أو عنيفة المزاج، فهو لا يفعل شيئاً غريباً، لأن ذلك طبيعي فيها.

^{٢٦} اتفق أكثر الشراح على أن المعنى المراد هو «وغد ماكر»، ولكن كلمة «غير سعيد» لم يضعها الشاعر عبثاً، ولا يزال لها معناها، لأن الماكن عادة رجل متشائم مستنكر للحياة، فلا تخلو كلماته الحلوة من مرارة.

^{٢٧} رأينا الشراح يمرون بهاتين العبارتين بدون تعليق وإن كانتا تحتاجان إلى إيضاح، فقد كان لافيه هو الذي عرض على الملك مسألة تزويج ابنته لبرترام، فلماذا نراه هنا متردداً في مقابلته، وما الذي تشير إليه الكونتيسة في ردها هنا عليه؟

^{٢٨} القטיפه هنا كناية عن شعر اللحية، والنكته التي أرادها المهرج تشير إلى المرض الفرنسي «الزهري» وكانت العادة إن ظهر طَفْحُه على الوجه أن يعالج بلزقة طَبِيَّة.

^{٢٩} في الأصل مقدار معين من القטיפ يغطي الخد الأيسر ويجعله كالوارم إشارة إلى «الزهري».

الفصل الخامس

المشهد الأول

شارع في مارسيليا

(تدخل هيلين والأرملة وديانا وتابعان.)

هيلين: لا بد من أن يكون هذا السفر السريع ليلاً ونهاراً، قد أجهدكما كثيراً! ولكن لم يكن لنا معدى منه ولا مفر، وما دمتما قد وصلتما الليل بالنهار، ورضيتما الجهد من أجلي وتجشم الأسفار، فنقأ أن ديني لكما يزداد على الأيام، حتى لا يستطيع شيء أن ينزعكما من مودتي.

(يدخل مدرب البزاة.)

إن هذا الرجل إذا سنحت الفرصة يستطيع بنفوذه وشفاعته أن ينهي أمرنا إلى مسامع جلالته، سلام الله عليك يا سيدي.^١

مدرب البزاة: وعليك السلام.

هيلين: سيدي، لقد رأيتك في بلاط فرنسا.

المدرب: كنت أحياناً هناك.

هيلين: أظن يا سيدي أنك لا تزال على شأنك من طيب الأحداث، وكريم الخلال، ولهذا تدفعني ظروف ملحة إلى الجرأة عليك، والانتفاع بفضلك، متخطية بذلك آداب اللياقة، وسأظل شاكرة لك ما حييت.

المدرب: بماذا تأمرين؟

هيلين: أن تتفضل فترفع إلى الملك هذا «المعروض» المتواضع وتعينني بكل ما أوتيت من جاء على المثل بين يديه.

المدرّب: إن الملك ليس هنا.

هيلين: أقول يا سيدي إنه ليس هنا؟

المدرّب: نعم، فقد سافر الليلة الماضية في عجلة لم تكن يوماً من عادته.

الأرملة: رباه ... ذهبت جهودنا سدى؟

هيلين: لا تزال الأمور مرهونة بخواتيمها، ولكني يا سيدي وإن لم تكن الظروف مواتية، والوسائل غير ملائمة ولا مجدية، أسألك أين تراه ذهب؟

المدرّب: أكبر ظني أنه قصد إلى «روسيون»، وأنا إليها الساعة مُنَّجه.

هيلين: رجائي يا سيدي ما دمت على الأرجح ستقابل الملك قبل أن يتاح لي المثل لديه، أن ترفع إليه هذا الملتمس وتزكيه، وهو أمر لا أحسبه ملقياً عليك ملاماً، بل سوف يفيك على ما بذلت من جهد شكرًا وعرفاناً، وسألحق بك بكل سرعة في إمكاننا، وعلى قدر ما تواتينا الوسائل.

المدرّب: سأفعل ذلك من أجلك.

هيلين: وستجد نفسك مشكوراً مهما يحدث بعد، فلنعد إلى خيلنا ولنذهب هيا بنا.

(يخرجون.)

المشهد الثاني

(يدخل المهرج، وبارولس.)

بارولس: يا سيد لافاش،^٢ خذا هذا الكتاب إلى السيد لافيه، لقد كنت فيما مضى يا صاح معروفاً لديك أحسن من هذا وأجمل منظرًا، حين كنت في ألفة وحسن الثياب، وروعة الهندام، ولكنني يا سيد «موحل» في مزاج «الحظ» وتقلبات «أحواله»^٣ وتبدو عليّ أمارات تنكره لي وتغيره، ظاهرة جميلة.

المهرج: حقاً إن تنكر الحظ لقدر إذا كانت رائحته كما قلت تزكم الأنوف كما أرى، ولن أكل بعد اليوم من سمك الحظ ومقالاته، من فضلك دع الهواء يدخل.^٤

بارولس: كلا، لا حاجة بك يا صاح إلى إمساك أنفك، وحبس نشيقك، فإن ما قصدت بقولي إلا الاستعارة ...

المهرج: فعلاً يا سيدي، وإذا كانت استعارتك كريهة الرائحة أمسكت أنفي لأحمي شيمي منها، أو من استعارة أي إنسان آخر، من فضلك ابتعد عني.

بارولس: أرجوك يا سيدي أن تسلم كتابي هذا.

المهرج: أف، أرجوك أن تبتعد، هل تريد مني أن أسلم كتاباً من «كرسي» الراحة،^٦ إلى سيد نبيل من ذوي السماحة، انظر ها هو ذا قادم بنفسه.

(يدخل لافيه).^٦

هذا يا مولاي وغد محظوظ أو هو قط الحظ، ولكنه ليس قط زيد^٧ يهب شذى المسك منه، بل هو سقط في بركة إدباره الكدرة، وترعة أمواهه القذرة، فعلته كما يقول الأوحال، وساعت منه الحال، ورجائي يا مولاي أن لا تتناول من السمك غير «المبروك» الذي ينمو في المياه الرائقة،^٨ لأنه يبدو رديئاً، عفناً، خبيثاً، ووغداً شقيئاً، وإني في بسمه حظي وإقبالي، أرثي لتنكره له وإدباره، وأتركه الآن لمولاي.

(يخرج).

بارولس: مولاي، إنني رجل قسا عليه الحظ فخدشه.

لافيه: وماذا تريد مني أن أفعل، لقد فات، وقت تقليم أظفاره، فما الذي فعلته في المكر بالخط حتى خدشك، عهدي به السماح الكريم لا يخدش، والعدل لا يبقى طويلاً على كل وغد أو خسيس، لقد لقيت جزاءك، خذ هذه لك (يعطيه قطعة من النقود)، فالتمس من الكنيسة التوفيق بين الخط وبينك.^٩ فإن لدي عملاً آخر.

بارولس: أتوسل إليك أن تستمع إلى كلمة واحدة مني.

لافيه: إنك ترجو درهماً واحداً آخر، فخذهُ ووفر كلمتك عليك.

بارولس: إن اسمي يا مولاي الكريم هو «بارولس».^{١٠}

لافيه: أنت إذن تطلب أكثر من كلمة، يمين الله،^{١١} هات يدك، كيف حال طبلتك.^{١٢}

بارولس: آه يا مولاي الكريم، لقد كنت أول من كشفني.^{١٣}

لافية: أحقًا، وقد كنت أيضًا أول من فقدك.

بارولس: إن سماحتك يا مولاي لكفيلة بأن ترد إلي شيئًا من الكرامة لأنك أخرجتني منها.

لافية: اخسأ أيها الوغد، أطلب إلي أن أعمل عمل الله والشيطان معًا؟ أحدهما يُدخلك في رحمته، والآخر يُخرجك منها (يسمع صوت النفير)، ها هو ذا الملك قادم، كما يبدو من صوت النفير، سل عني بعد يا هذا، فقد كنت أحدث عنك في الليلة الماضية، ولئن كنت أحمق ووغدًا فلا نحرملك من طعامنا، أبدًا، هلم اتبعني.

بارولس: أحمد الله إليك.

(يخرجان.)

المشهد الثالث

حجرة في قصر روسيون

(طبول — يدخل الملك والكونتيسة ولافية والشريفان الفرنسيان والحاشية.)

الملك: لقد فقدنا بموتها درة يتيمة وقد انحطت سمعتنا بذلك ولكن ابنك بحماقته وجنونه لم يدرك قيمتها، ولم يعرف لها قدرها كاملًا.

الكونتيسة: فُضي الأمر يا مولاي، وأرجو إلى جلالتك أن تعده فورة طبيعية من وقدة الشباب حين يتغلب الزيت والنار على قوة العقل فيكتسحانه ويظلان مخترقين مشتعلين اشتعالًا.

الملك: أيتها السيدة الجليلة لقد صفحت ونسيت كل شيء مع أن انتقامي منه كان مريش السهام، يرقب اللحظة الملائمة ليطلق رمياته، ويرسل قذيفاته.

لافية: أجد لزامًا علي أن أقول ... ولكني أبدأ أولًا باستمache جلالتكم عفوًا وغفرانًا ... إن الأمير الشاب أساء إلى جلالتكم، وإلى أمه، وزوجه، إساءة بالغة، ولكنه أساء إلى نفسه أشد الإساءات كلها، وظلمها ظلمًا مبيّنًا، لقد فقد زوجًا كان جمالها قبله أوسع الأعين خبرة بالحسان، وكلامها يأسر الأذان، ويفتن الأسماع، وكمالها يخضع لها القلوب الأبية، ويحملها على أن تدعوها في خشوع مولاتي.

الملك: إن مدح ما فقدناه، يعزز ذكراه، والآن ادعوه إلينا، فقد رضينا عنه وصفحنا، وأول لقاء كفيل بإزالة ذكرى كل ما مضى من إساءات، فلا تدعوه يسألنا غفرانًا، فقد نسينا ما كان منه، بل أكثر من

النسيان، لقد دفنا كل مخلفاته، وبقيّة تذكاراته فليمثل في حضرتنا جديداً علينا، كأن لم يأت من قبل ولم يسي، وأبلغوه أن هذه هي مشيئتنا.

أحد السادات: سمعاً وطاعة يا مولاي.

(يخرج.)

الملك: وما قوله في ابنتك، هل تحدثت في الأمر؟

لافيه: إن أمره كله رهن بمشيئة جلالكم.

الملك: إننا إذن أمام خطيب كفاء، فقد تلقيت كتاباً تنوء به وترفع من ذكره.

(يدخل الكونت برترام.)

لافيه: إنه يبدو جديراً به.

الملك: أنا لست بالنهار الرائق فقد تشهد عيناك فيّ شمساً ساطعة، والبرد من سمائي منهماً في وقت واحد، ولكن على مطلع الأشعة الباهرة، تتراجع السحب المتكاثرة، فلتقم حيث أنت فقد عاد الزمان صفواً.

برترام: أيها المولى العزيز مغفرة لما فرط مني، وندمت عليه أشد الندامة.

الملك: انتهى كل شيء، فلا تذكر الماضي بكلمة أخرى فقد انقضى، ولك الساعة التي أنت فيها، فلنمسك بالفرصة من جدائلها، فقد أدبر العمر بنا، وقدم الزمان، في ديبية الخافت وخطوه الصامت، متسللاً، إلى أعجل ما نقرر قبل أن ننفذه، وأسرع ما تشاء، قبل أن ننجزه ...

أذاكر أنت ابنة هذا الشريف؟

برترام: بإعجاب يا مولاي، فقد وقع اختياري أولاً عليها، قبل أن يجسر فؤادي على أن يتخذ لساني رسولاً، أو يوفد مقولي إليها بشيراً، ولم يلبث أثر جمالها في ناظري أن جعل الإزراء بكل جمال سواء يعيرنه مرآته، فبدا كل وجه آخر منكور المعارف، مسفوع اللون، غير متناسب القسمات، دميماً تتبو عنه النظرات، ومن ثم كانت، التي تلهج السنة الناس بمديحها، والتي أحببتها منذ أن فقدتها، تبدو قذى في عيني، وأذى لناظري.

الملك: أحسنت التشفع، وأجدت التبرير، فإن حبك لها يمحو بعض المفردات من الحساب، ولكن الحب الذي يأتي متأخراً هو أشبه بالعفو الرحيم الذي يأتي وانياً، بعد تنفيذ العقاب، ويصبح من الحسرة أنه أقبل

بعد ذهاب، وأن من تولى كان طيباً، ومن توارى كان كريماً لا يُعاب، إن طيشنا ليبخس أخطر الأشياء لدينا أثمانها، ويقلل من أقدارها وموازينها، فلا نعرف خطرنا حتى نخسرها، ولا ندرك فضلها، حتى نوسدها في قبرها، وإنا لنظلم أنفسنا كثيراً بمطوعة نفورنا، فنقضي على أصحابنا، وندمر أحبابنا، ثم نبكي على ترابهم، ويصحو حبنا فجأة من غفوته، لينوح ندامة على فعلته، في حين ينام كرهننا المستهتر نومة الظهيرة مستخفاً بجريمته، فليكن هذا بمثابة ناقوس الممات، لهيلين الجميلة الكثيرة الحسنات، والآن فأنسها وأبعث بأمرات حبك لمجدلين الحسنة، وقد تم الاتفاق على القران، بين ذوي الشأن، وسنقيم هنا حتى تحضر يوم الزفاف الثاني لأرملتنا.

الكونتيسة: ليجعله الله أسعد من الأول وأوفر بركات، وأن يتمه بخير قبل أن يدركني الممات.

لافية: هلم يا بني، يا من سيقترن اسم عشيرتي باسمه على الزمان، هلم قدم رمز حب منك إلى ابنتي يتلأل في روحها، ويملأ جوانحها بريقاً وسناءً، فتسرع في القدوم إلينا (يقدم برترام خاتماً) وحق لحيّتي هذه، وكل شعرة من شعراتها، إن هيلين التي قضت كانت مخلوقة محببة، وكان هذا الخاتم في إصبعها، آخر مرة زرت فيها البلاط.

برترام: لم يكن خاتماً.

الملك: دعني أشهده، فكثيراً ما كانت عيني تستقر عليه حين كنت أتكلم (يتناول من لافية ويدخله في إصبعه)، هذا كان خاتمي أعطيته لهيلين وقلت لها إذا خانها الحظ واحتاجت إلى المعونة، فليكن هذا الرمز مذكراً لي فأبادر إلى معونتها، فهل أوتيت من الدهاء ما استطعت به أن تحرمها مما كان لها أعز سناد وأكبر نصير.

برترام: مولاي المعظم، مهما يسرك أن يكون الأمر كما قلت، فلم يكن هذا الخاتم يوماً خاتماً.

الكونتيسة: أي بني، إني أقسم بحياتي أني رأيته تلبسه، وكانت تعتر به اعتزازها بالحياة ذاتها.

لافية: إنني واثق أنني رأيته تلبسه.

برترام: أنت واهم يا مولاي، فما وقعت عينها يوماً عليه، لقد ألقى إلي وأنا في فلورنسا من شرفة، ملففاً في ورقة تحوي اسم التي ألقته، لقد كانت كريمة نبيلة النفس، وقد ظننت أنني خطبتها، ولكني لمّا أفصحت لها عن شئوني، ونبأتها صراحة أنني لا أستطيع الاستجابة إلى هذا الشرف الذي فاتحتني فيه، كفت عني آبية آسية، ورفضت أن تسترد الخاتم ثانية.

الملك: إن بلوطس^{١٤} نفسه العليم بطبائع المعادن وخواصها، لم يؤت من أسرار الطبيعة مثل علمي بهذا الخاتم وقيمه، إنه خاتمي، بل خاتم هيلين، أيّا كانت من أعطتك إياه، فإن كنت واثقاً من نفسك فاعترف

أنه خاتمها، وقل بأية وسيلة من وسائل العنف حصلت عليه منها، لقد أقسمت أمامي بكل القديسين ألا تخلعه من أنملتها أبداً، إلا إذا أعطتك إياه في فراشها الذي لم تذهب إليه، أو تبعثه لنا إذا حلت بها أعظم كارثة.

برترام: إنها لم تره في حياتها.

الملك: وحق شرفي الذي أغلو به، إنك لتقولن كذباً، وتدخلن في روعي مخاوف وهواجس أود لو أنني سددت عليها السبيل، فإذا ثبت لي أنك مجرد من كل شعور إنساني ... وهو ما لن يثبت، وإن كنت إلى الآن لا أعلم — لقد كنت تكرهها كراهية مميتة، وهي اليوم ميتة، وليس ثمة شيء أدعى إلى تصديق مماتها، من رؤيتي هذا الخاتم الذي كان في أنملتها، إلا أن أكون أنا الذي توليت بيدي إغماض عينيها ... اغربوا به عني ... إن ما جربته فيما مضى من أمرك، مهما تكن نتيجة هذه المسألة التي ننظر فيها، تجعلني الملوم على أنني من حماقتي لم أسترب بك إلا قليلاً، وكانت الحكمة تقتضي أن أستريب كثيراً، اذهبوا به ... فسوف نبحت في هذا الأمر فيما بعد ونتقصى وجه الحق فيه.^{١٥}

برترام: إذا أثبت أن هذا الخاتم كان يوماً خاتمها، فقد دلت على أنني عاشرتها في فلورنسا، وهي لم تطأ أرضها بقدميها.

(يخرج.)

(يدخل أحد السادات.)

الملك: لقد استولت على نفسي أفكار أليمة وخواطر قاتمة.

السيد: إي مولاي العظيم، لست أدري هل تراني أخطأت أم لم أخطئ، هذه عريضة من امرأة فلورنسية، لم تستطع لكثرة تنقلات مولاي ورحلاته، أن تقدمها بنفسها إلى سدتك، فتعهدت لها، وقد غلبني جمالها، وحسن قولها، وكثرة توسلاتها أن أقدمها لجلالتك، وقد علمت الآن أنها هنا في انتظار أمرك، ويبدو لي أن الأمر خطير، فقد أنبأتني في حديثها العذب وشرحها اليسير أن أمرها يهم مولاي.

الملك (يقرأ الخطاب):

«... يخجلني أن أقول إنه استطاع بعد توكيداته، وكثرة توسلاته، في سبيل الزواج بي، بعد ممات زوجته، أن يغلبني على أمري، وها هو ذا الكونت روسيون قد ترمّل، فحنث في عهوده، ونال من شرفي بكنوده، متسللاً من فلورنسا غير مودع ولا مستأذن، وقد جئت في أثره إلى وطنه أنشد العدالة، فامنحنيها أيها الملك، لأنك خير ممثليها، وأعلى منارها، وألا يصبح الكاذب الغواء موفقاً مظفراً، ويذهب شرف فتاة مسكينة مطلولاً مهدراً».

ديانا كابليت

لافيه: إني لأوثر أن أشتري لابنتي زوجًا من السوق وأبيع هذا، لن أرضى به نسيبًا.

الملك: لقد كانت السموات عليك حانية، يا لافيه!، فكشفت عن هذا الأمر النقاب، إيتوني بهؤلاء الطالبين، أسرعوا ولتعيدوا الكونت إلى حضرتنا.

(يدخل برترام.)

أخشى أيتها السيدة أن تكون حياة هيلين قد اختُطفت غيلة وغدرًا.

الكونتيسة: الآن لتأخذ العدالة الأثمين بإثمهم.

الملك: عجبي لك يا فتى، تكره النساء أزواجًا، وتتخلص منهن حين تقسم اليمين على قبولهن، ثم لا تزال تطلب قرانًا، من تكون هذه المرأة ...

(تدخل الأرملة وديانا وأحد السادات.)

ديانا: أنا يا مولاي فلورنسية منكودة، من أسرة كابليت القديمة، وقد فهمت أنك عرفت بأمر قضيتي، وعرفت أن حالتي تستحق الرثاء ...

الأرملة: وأنا أمها يا مولاي، تعرض كبرها وشرفها للمساءة، وقد شرحناها في هذا الكتاب الذي رفعناه، فإذا لم تعالج الأمر يا مولاي بحكمته ورحمتك، فُضي على حياتي وشرفي معًا.

الملك: أقبل أيها الكونت، هل تعرف هاتين المرأتين؟

برترام: ليس في وسعي يا مولاي أن أنكر معرفتي إياهما، ولن أنكر هذه المعرفة، فهل لديهما غير هذه التهمة؟

ديانا: لماذا تنتظر إلى زوجك هكذا مستغربًا؟

برترام: إنها ليست زوجًا لي يا مولاي.

ديانا: إذا أنت تزوجت بعدي، نقضت هذه اليد، وهي يدي، ونقضت اليمين، وهي يميني، ونزعت نفسي، وهي بين جنبي، لأنني بحق اليمين جزء لا يتجزأ منك، ومن تتزوج بك، لا بد أن تتزوجني، فإما نحن معًا، أو لا.

لافيه: إن سمعتك لا تلائم ابنتي، وأنت لست لمثلها أهلًا.

برترام: إن هذه المخلوقة يا مولاي فتاة حمقاء مستيئسة كنت أحياناً ألهو بها وأعبت، فأحسن بي الظن يا مولاي، ولا يخامرك في شرفي سوء، فتظن أنني إلى مثل هذا الدرك نزلت به.

الملك: لن أحسن بك الظن، حتى تكسب فعالك حسن ظني حقاً، فأثبت شرفك، وأزل ما علق به في خاطري.

ديانا: تفضل يا مولاي فسله أن يُقسم هل تراه لم يمسس عذرتي، وينل من عفتي.

الملك: ماذا تقول لها؟

برترام: إنها وقحة يا مولاي، وكانت ألعوبة عامة يلهو بها المعسكر.

ديانا: إنه يظلمني بهذا القول يا مولاي، فلو أنني كنت كما يصف لاشتراني بثمن المرأة العامة، فلا تصدقه، ألا انظر إلى هذا الخاتم الذي لا مثيل له في غلو قدره، ورفعة جوهره، ومع ذلك لقد أعطاه إلى «ألعوبة عامة» يلهو بها المعسكر، لو أنني كنت كما وصف.

الكونتيسة: لقد علاه الخجل، إذ أصابته في الصميم، إن هذا الخاتم الذي ظل ستة أجيال تراثاً يتوارثه الخلف عن السلف، وقد أعطيَ إليها فلبسته، هي إذن زوجه، وهذا الخاتم على الزواج يقوم مقام ألف دليل.

الملك: أحسبك قلت إنك رأيت في البلاط أحداً يصح أن يكون شاهداً.

ديانا: أجل يا مولاي، وإن كرهت أن ألجأ إلى هذه الأداة السيئة، إن هذا الشاهد يدعى «بارولس».

لافية: لقد رأيت الرجل اليوم، إذا تجاوزت فوصفته بأنه رجل.

الملك: ابحثوا عنه وأتوا به إلينا.

(يخرج الخدم.)

برترام: أمثله يصلح شهيداً، وهو المعروف بأنه أسوأ عبد ختلاً وغدرًا، وأكثرهم في هذه الدنيا معاباً ونكرًا، لتأبى خليقته الدنسة أن تقول الحق، فهل يقضى علي بهذا أو ذاك حسبما يقوله هذا الإنسان الذي لا يأبى أن يقول أي شيء؟

الملك: إن لديها خاتمك.

برترام: أظن ذلك، ففي الحق لقد راققتي، فاستمتعت بها في نزوة من نزوات الشباب، لقد عرفت كيف تتاضل، فاتخذتني صيداً، وراحت تتأبى لتزيدني لهفة، وتوقاً ووجداً، لأن الحوائل حين تقوم في طريق الرغبة تزيد الراغب شوقاً وسعيراً، وجملة القول إنها عرفت بمكرها الذي لا حد له، وجمالها العادي كيف تخضعني لمشيئتها، فظفرت مني بالخاتم، وظفرت منها بما كان من دوني ظافراً به بسعر السوق إذا طلبه.

ديانا: سأصبر على هذا، أنت الذي نبذت زوجاً كريمة، كزوجك الأولى، لا تتورع من أن تتكرني إنكاراً، ولكني أرجوك — ما دمت من المروءة مجرداً، فإني لن أكون لك زوجة — أن تبعث في طلب خاتمك، لأرده إليك، واردد علي خاتمي.

برترام: ليس لدي خاتمك.

الملك: وما هو خاتمك هذا؟ أرجوك أن تفصحي.

ديانا: إنه يا مولاي يشبه كثيراً الخاتم الذي في إصبعك.

الملك: أتعرفين هذا الخاتم؟ لقد كان خاتمي من عهد غير بعيد.

ديانا: وهو الذي أعطيته إليه ونحن في الفراش.

الملك: أهذه إذن قصة كاذبة؟ لقد ألقيت به إليه من النافذة.

ديانا: لقد قلت الحق يا مولاي.

(يدخل بارولس.)

برترام: مولاي، إنني أعترف بأنه خاتمها.

الملك: ما بالك تضطرب هكذا، وتفزع من كل ربشة (إلى ديانا) أهذا هو الرجل الذي تحدثت عنه؟

ديانا: أجل يا مولاي.

الملك: نبئني يا هذا، وإنني أمرك أن تقول الحق، ولا تخف غضب مولاك، لأنني منه إذا صدقت أحملك، ماذا تعرف عنه وعن هذه المرأة الماثلة أمامنا؟

بارولس: لتكن مشيئتك يا مولاي، لقد كان سيدي رجلاً شريفاً وله حيل والأعيب ككل السادة.

الملك: حسبك، حسبك، وليكن كلامك في الموضوع، هل أحب هذه المرأة؟

بارولس: حقًا يا مولاي، لقد أحبها، ولكن كيف؟

الملك: كيف؟ قل من فضلك.

بارولس: لقد أحبها يا مولاي كما يحب كل سيد امرأة.

الملك: وكيف ذلك.

بارولس: أحبها يا مولاي ولم يحبها.

الملك: كقولنا أنت وعدت وولست وغداً، أي مغالط مماحك هذا المخلوق.

بارولس: إنني رجل فقير تحت أمر جلالتك.

لافيه: إنه طبال بارع يا مولاي، ولكنه خطيب لا قيمة له.

ديانا: هل تعرف أنه وعدني بالزواج؟

بارولس: والله إنني أعرف أكثر مما أريد أن أقول.

الملك: ولكن هلا قلت كل ما تعرف؟

بارولس: أمرك يا مولاي ... لقد كنت وسيطاً بينهما كما قلت، ولكنه كان يحبها، بل كان بها محبباً مستهماً، وكان يتحدث عن الشيطان والجحيم، وآلهة الانتقام، وما إلى هذا مما لا أعرف شيئاً عنه، ولكني كنت موضع رضاها في تلك الأيام، ومناطق ثقتهما، فعرفت نبأ ذهابهما إلى الفراش، وأشياء أخرى كالوعد بالزواج، وغيره مما تنفر منه نفسي إذا تكلمت أنا عنه، ولهذا لا أقول ما أعرف.

الملك: لقد قلت الآن كل شيء إلا إذا كنت لا تستطيع أن تقول إنهما متزوجان، ولكنك في شهادتك داهية لبق، قف جانباً، أنقولين إن هذا الخاتم خاتمك؟

ديانا: أجل يا مولاي.

الملك: ومن أين اشتريته؟ أو من هو الذي أعطاك إياه؟

ديانا: لم أعط إياه ولم أشتريه.

الملك: ومن أعارك إياه؟

ديانا: ولم يعرنيہ أحد أيضًا.

الملك: أين وجدتيه إذن؟

ديانا: لم أجده.

الملك: إذا لم يؤل إليك بإحدى هذه الوسائل، فكيف أعطيته إياه؟

ديانا: لم أعطه إياه.

لافية: إن هذه المرأة قفازة سهلة يا مولاي، تدخل في الكف وتخرج كما تريد.

الملك: إن هذا الخاتم خاتمي، أعطيته زوجة الأولى.

ديانا: لا أدري هل هو خاتمك أم خاتمها.

الملك: انصرفوا بها، لم أعد أطيقها، اذهبوا إلى السجن بها، وأبعدوه من هنا، إذا لم تقولي لي من أين جاءك هذا الخاتم، فأنت هالكة الساعة.

ديانا: لن أقول لك.

الملك: اذهبوا بها.

ديانا: ساتي بكفيلي يا مولاي.

الملك: أحسبك الآن امرأة عامة.

ديانا (موجهة القول إلى لافية): والله إن كنت عرفت في حياتي رجلًا فهو أنت.

الملك: علام ظللت تلقين التهم عليه كل هذا الوقت؟

ديانا: لأنه مذنب وليس مذنَّبًا، إنه يعرف أنني لست عذراء ولا يتردد في أن يقسم على ذلك، ولكنني أقسم أنني عذراء، وهو لا يعرف، أيها الملك العظيم أنني لست بغيًّا، بل وحياتي إنني إما أن أكون عذراء، أو لهذا الشيخ زوجًا.^{١٦}

الملك: إن كلامها يؤذي أسماعنا، اذهبوا بها إلى السجن.

ديانا: أماء العزيزة هاتي كفيلى. (تخرج الأرملة)، مهلاً يا صاحب الجلالة، فقد أرسلت في طلب الجوهري الذي يملك الخاتم وهو سيؤيد قولي، ويعزز بياني، أما هذا الأمير الذي ابتذلني كما يعرف، وإن لم يؤذني، فإني أبرئ ذمته، وأقبله من تهمته، إنه يعرف أنه قد دنس فراشي وفي الوقت ذاته أولد زوجه ولداً، ولئن كانت قد ماتت، فلا تزال تحس وليدها يرفس بساقه، هذا هو لغزي، إن الميتة على قيد الحياة، فانظر يا مولاي، في معنای، وتدبر المقصد والمراد.

(تدخل هيلين والأرملة.)

الملك: وي، ألا يوجد صاحب رقى وتعاويز يعيد إلى ناظري وظيفتهما الحقّة، هل أبصر حقاً، وأرى يقيناً ...

هيلين: كلا، يا مولاي الكريم، إن تبصر إلا ظل زوج، ولا ترى منها غير الاسم.

برترام: الاسم والمعنى معاً ... مغفرة وصفحاً.

هيلين: أواه، يا مولاي الكريم، لقد وجدتك ودوداً إلى أبعد حد حين كنت شبيهة بهذه الفتاة، ها هو ذا خاتمك، وها هو ذا كتابك، وأنت القائل فيه: «إذا استطعت يوماً أن تطفري بهذا الخاتم من أصبوعي، وتأتيني بولد من صلبى وأصلعي» ... إلخ، وقد تحقق الآن ما قلت، فهل أنت لي، بعد أن ظفرت بك مرتين؟

برترام: إذا استطاعت يا مولاي أن تشرح لي هذا الأمر جلياً، أوليتها الحب عزيزاً غالياً.

هيلين: إذا لم يبدُ هذا جلياً، أو كان أمراً فرياً، فليفصل الطلاق المميت بيني وبينه أبدياً ... من ذا أرى ... أمي العزيزة حية؟

لافيه: لقد هجم الدمع في عيني (إلى بارولس) أعرنى يا ذا الطبلّة منديلاً، شكرًا لك، وانتظروني في دارنا، سألهو بك، ولكن كُف عن هذه التحيات والانحناءات، إنها ذليلة مهينة.

الملك: دعونا نعرف القصة بحذافيرها، ليستفيض الصدق الصراح من معالمها وصورها، فتفرح بها نفوسنا، وإن كنت لا تزالين زهرة صبيحة لم تقتطف (يخاطب ديانا) فاختراري زوجك وعلي مهرك، ويذهب بي حدسي إلى أنك بجهدك الصادق الشريف، حرصت على أن تكوني زوجاً، وأن تظلي عذراء، وسنفرغ لجلاء هذا الأمر في مختلف أدواره، كل ما جرى كان خيراً، فإذا كان الخير في النهاية، كان الماضي في مرارته، أحلى وأعذب في خاتمته.

(طبول.)

نشد ختامي

أصبح الملك متسولاً، بعد اختتام المسرحية، وما دامت القضية قد اكتسبت، فقد انتهى الأمر كله بسلام، فلتعلنوا عنها رضاكم، تجدوا عليه منا اجتهداً في إرضائكم، وفي كل يوم بعد الآخر مزيد، فليكن لنا صبركم علينا، وليكن لكم مثل أدوارنا، مدوا إلينا أيديكم، وخذوا منا قلوبنا.
(يخرجون.)

- ^١ في الأصل: «الله يحميك أو ينجيك».
- ^٢ أول مرة ينادى فيها المهرج باسمه، ومعناه «البقرة»، ويلاحظ أن بارولس يكلم المهرج بأدب ورجاء، مما يوحي بأنه بعد حادث الكمين وافتضاح أمره أصبح ذليلاً مهيبض الجناح.
- ^٣ استعارة من «الوحد» والأوحال، ثم جنال مقلوب في كلمة «أحوال».
- ^٤ أي أن رائحته كريهة خانقة، فهو يطلب منه أن يتحنى قليلاً حتى يدخل الهواء النقي فيزيل هذه الرائحة.
- ^٥ هكذا في الأصل وهو «كرسي» المرحاض أو بيت الراحة، لكراهة ريحه.
- ^٦ حين يدخل لافيه لا يعرف بارولس لأول وهلة.
- ^٧ قط الحظ أو القط القفاز الذي يراقبه الناس ليعرفوا أية جهة يقفز إليها فيتبينوا من ذلك حظهم.
- ^٨ نوع من السمك يسمى «المبروك» أو «الشموط»، لا يعيش إلا في الماء الحلو والترعة الجارية أو البرك النظيفة، أي لا تأكل من هذا النوع الذي يعيش في الأوحال أو سمك «البرك» والمستنقعات.
- ^٩ أي: الجأ إلى الأبرشية تُعطك حسنة من صندوق النذور.
- ^{١٠} بارولس — جمع بارول — ومعناها بالفرنسية كلمة واسمه بصيغة الجمع، ولهذا رد عليه لافيه بقوله: إنك إذن تطلب أكثر من كلمة.
- ^{١١} في الأصل «استثر عاطفتي»، وهو قَسَم معناه: «بحق العذاب الذي عُدَّ به المسيح». وقد أثرنا أن نجعله هكذا في العربية.
- ^{١٢} إشارة إلى حادث «الكمين» والطبلة التي فضحت، مما يوحي بأنه علم بها من الشريفيين الفرنسيين.
- ^{١٣} في الأصل «أنت أول من وجدني» ولكن المراد كشفني أو أناط اللثام عن ميولي، ومن هنا جاء الرد: «كنت أيضاً أول من فقدك» ... هكذا في الأصل، ولكن المعنى المراد هو أنني كنت أول من عرفك على حقيقتك، فلم أعد أحترمك.
- ^{١٤} بلوطس هو إله اليسار والغنى عند الإغريق، فهو الخبير بالمعادن والجواهر الكريمة.
- ^{١٥} في الأصل: «نغربله غريلة».

^٦ يبدو كلامها متناقضًا، ولكنه في الواقع صحيح لأن برترام لا يعرف حقيقة ما جرى. وقولها: «أو أكون لهذا الشيخ زوجًا» هو استحالة لأنها لن ترضى به، وهذا تأكيد أنها عذراء.

الفهرس

موضوع القصة ومن أين اقتبسها شكسبير

شخصيات المسرحية

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس